

الباب الثاني

في التعريف بالنقد الأدبي

الفصل الأول

ما النقد الأدبي ؟

- ١ -

لاحظنا فيما مر أن النقد الأدبي فن طبعي في حياة الانسان متى أوتي حظاً ولو كان هيناً من قوتي الإدراك والشعور ، فذلك يمكنه من فهم الأدب وذوقه ثم الحكم عليه ، وكذلك لاحظنا أن النقد نشأ مبكراً وعاصر الأدب منذ طفولته ولعل أول ناقد وجد عقب أول شاعر سواء أكان نقده سليماً يقف عند تذوق الشعر فحسب أم إيجابياً يتجاوز ذلك إلى الإفصاح عن هذا الانفعال شارحاً معللاً وهكذا بدأ النقد وسائر الأدب في كل عصوره التاريخية .

هذه الأمة اليونانية قد أوتيت منذ بدايتها دقة في الحس وطلاقة في اللسان ظهراً فيما كان يلاحظ أبنائها على الشعراء من مآخذ أو محاسن تتصل باللفظ والمعنى والوزن والإنشاد ، وكان منهم الرواة والمتعصبون ، كما كان بين الشعراء لمتنافسون والمتسابقون ، وكانت هذه الملاحظات النقدية قائمة على الذوق الساذج دون أن تكون هناك أصول نقدية مقررة يرجع إليها النقاد . ثم جاء عهد تدوين الاليادة والأدوسا بإشارة سولون ، فكان وسيلة للنقد والتحقيق وتمحيص نصوصهما بنفي ما يناقض الميول الفردية والاجتماعية والذوقية ، لمكانة الشعر عند اليونان . وعن ذلك صدرت أول نسخة للقصتين فوضعت بذلك حداً لعبث الرواة بهما وإفساد نصوصهما .

فلما كان القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد وجد الشعر التمثيلي واستقر في أتبنة ، ترقى النقد الأدبي ومكن للشعراء أن يتناولوه بطريقة أشمل وأعمق ما دام الشعر التمثيلي نفسه نقداً للحياة وتقويماً لشئونها المختلفة فوجد المجال لاتساع النقد والتعمق في جوانبه . وأساس هذا النقد الأدبي الحديث ذلك النظام الذي وضعته الدولة للحكم بين الشعراء والفصل فيما ينتجون من قصص ، إذ يقدم كل شاعر جملة من قصصه إلى محكمين يقدمون للتمثيل ما يروونه منها صالحاً ، ثم يكون للجمهور المستمع رأيه أيضاً بما يشهد أثناء التمثيل ويتلقى من مؤثرات . ولكن حكم الجمهور تعرض للطن والتجريح لاختلاف طبقاته وعدم قدرته على استبقاء كل العناصر التي تهيب للحكم السديد ، فعين قضاة من أفرادهم ينهضون بهذا النقد العادي الذي قضت به القوانين وعينت بشكله دون جوهره ، دعا الشعراء إلى العناية بالقصص والمنافسة في إتقانها من حيث موضوعاتها ، ومعانيها ، وأساليبها . وقد تم ذلك في النصف الأول من هذا القرن . فلما كان نصفه الثاني كانت الحياة اليونانية قد استحالت من وجوه شتى ؛ فالناحية العقلية تقدمت بتقدم الفلسفة وسلطان السوفسطائيين الذين يعتمدون على الخطابة في التأثير في الجماهير ، فدعا ذلك إلى درس الخطابة : معانيها وأساليبها وصلة الخطيب بالجماهير . والناحية الفنية من رسم وتصوير وموسيقى ظهرت فيها براعة وطرافة ، ثم ظهرت آراء ونظريات فلسفية أثارت الشك في الوثنية وفيما ورثه اليونان من أفكار ، فظهر جيل جديد ينكر سابقه ، واشتد التناكر بين جيلي القرن الخامس حتى أثمر طائفة المجددين في الأدب أيضاً وبخاصة في فن المأسى ، وكتبت قصص نقدية تنعى على الأقدمين مذاهبهم في فهم التمثيل وفي أساليبه وعباراته وفي موضوعاته ومعانيه ، منها قصة الضفادع لأرستوفان Aristophanes التي ظهرت سنة ٤٠٦ ق م والتي تشبه — أو تشبهها — رسالة الفران للمعري . بجانب هذا النقد الذي نهض بين القدماء

والمجدين من أدباء اليونان السابقين وجد نوع آخر كان له حظ من الإزهار .
هو النقد عند الفلاسفة ، عاشت عليه آداب اليونان والرومان وأثر في الأدب
العربي القديم والأدب الأوربي الحديث . وكان يتناول اللفظ والمعنى والموضوع
ويتخذ الإلياذة والأودسا مجالاً للبحث والتفكير فلما رأى الفلاسفة أن هوميرو
وأصحابه يصورون الآلهة بما يتنافى مع العقل هاجم جماعة منهم الشعر وأنكروه ،
وقام آخرون يفسرونه تفسيراً مجازياً ويدفعون عنه بأنه تصوير خيالي يجب أن
يفهم على هذا الوضع الفني الجميل . وأولئك وهؤلاء لم ينكروا على الشعر ما فيه
من جمال يفتن الناس جميعاً فلا بد من فهم أسباب هذا الجمال .

وقد لحظوه في الوزن فدرسوا أنواعه وعلاقة كل نوع بما يلائمه من معنى
وموضوع ، ولحظوه في اللغة كذلك لامتياز لغة الشعر والشعراء بالطرافة والرشاقة ،
ودونوا هذه الملاحظات . وفي أثناء هذه الدراسة اللغوية مفردة ومركبة نشأ علم
النحو لأول مرة في تاريخ الحياة الانسانية ، وباتساع البحث في الجمل والعبارات
نشأ علم المعاني . ثم قد صاحب ذلك نهوض سيامي في نواحي الأقاليم اليونانية دعا
إلى كثرة الخصومات والتقاضى ، فكان لابد من الدفاع والمناظرة وهنا ترقى
الخطابة ووجد النثر لفائده الاجتماعية وخواصه الفنية ، ونشط السوفسطائيون
الذين ينكرون حقائق الأشياء ، داعين إلى تحصيل اللذة بالتأثير في الجماعات
والاعتماد على الاقناع لذاته مهما تكن عواقبه . وكانت هذه فرصة مناسبة لدراسة
الخطابة ونقدها من جميع وجوها بجانب درس الشعر ونقده كما أسلفنا .

فلما ظهر سقراط آخر القرن الخامس — وكان أول أمره سوفسطائياً —
أثبت حقائق الأشياء وهدم مذهب أساتذته ، وعرف البيان أو البلاغة بأنها فن
استكشاف الحقائق ، وسلك في ذلك طريقة الحوار المعروفة ، وتلاه تلميذه أفلاطون
صاحب نظرية المثل في الفلسفة ، فقال : إن الأدب أو الكلام ليس فناً يصنعه

الانسان ويعتمده ، وإنما هو وحي وإلهام : تدرك النفوس الصافية حقائق الأشياء ثم تعود فتلقيه على الناس شعراً ونثراً وفلسفة ، والإنسان في حاجة إلى البيان لنقل ما يلهمه إلى الناس . فالكلام عنده قسمان : فطرى لأحياله لنا فيه وهو قوة النفس وصفاتها لتستطيع التلقى والاستيعاء ، ومكتسب وهو الفن البياني الذي ينشئه المتكلم ملائماً لنفوس القراء أو السامعين ، والنقد الأدبي عنده ليس إلا العلم بطبيعة النفوس وأحوالها وقواها ثم الملاءمة بين ذلك وبين الكلام البليغ . وها نحن أولاء نصل إلى القرن الرابع قبل الميلاد وملتقى بذلك الفيلسوف الذي يقرأ لكل هؤلاء الفلاسفة والشعراء واللغويين ويسيع جميع ما يقرأ ويتمثله ، ويكمله ويضع بعد ذلك كله كتابه الخالد في أصول البلاغة والنقد . ذلك هو أرسطو ، وأما كتابه فهو الخطابة والشعر Poetica and Rhetorica . هذا الكتاب الذي يعد بحق المرجع الأول لكل الدراسات البلاغية والنقدية في كل المعاهد الراقية^(١) .

— ٢ —

ونحو ذلك يقال في نشأة النقد الأدبي في تاريخ الأدب العربي ، فقد كان في الجاهلية عبارة عن ملاحظات على الشعر والشعراء قوامها الذوق الطبيعي الساذج ، وقد مكن له تنافس الشعراء ، واجتماعهم في الأسواق وأبواب الملوك والرؤساء ، وهذه العصبية للقبيل للشاعر ، ومكانة الشاعر وكلامه بين البادين ، فكان ذلك كله سبباً لتجويد الشعر من ناحية ، ولتعقب الشعراء بالتجريح والتقريض من جهة ثانية . وكان النقد يتناول اللفظ والمعنى الجزئي المفرد ، ويعتمد على الانفعال والتأثر دون أن تكون هناك قواعد مقررة يرجع إليها النقاد في شرح أو تعطيل ، وينتهي إلى بيان قيمة الشعر ومكانة الشاعر بين أصحابه .

(١) طه حسين : محاضرات في تاريخ البلاغة .

وقد وجد الرواة الذين يأخذون عن الشعراء ويتمصبون لهم ، كما وجدت مذاهب شعرية واضحة عند زهير والنابعة وغيرهما ، وبقيت الحال كذلك حتى ظهر الشعر الإسلام فنهض الشعر واختصم الشعراء حول هذا الدين الجديد ما بين داع إليه منتصر له ، وداع عنه مناهض له ، وكان الرسول وخلفاؤه يؤثرون من الشعر ما هو بسبيل إلى الأخلاق الفاضلة والتعاليم الإسلامية ، ولعل عمر بن الخطاب في نقده زهير بن أبي سلمى كان مثالا للنقد الإيجابي القائم على التفسير والتعليل حين قال فيه إنه كان لا يعاقل في الكلام وكان يتجنب وحشى الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه .

فلما تقدم القرن الأول قويت نهضت الشعر ، وتعددت البيئات والمذاهب الشعرية والسياسة وحيث العصبيات الجاهلية وسواها ، فتوى النقد الأدبي تبعاً لذلك ، وتناول عناصر الشعر كلها وشمل الموازنات بين الشعراء وتقسيمهم طبقات . وكان هذا النقد امتداداً للنقد الجاهلي من حيث اعتماده — بين الأدباء — على الذوق والسليقة ، وكان يدور حول فحول الشعراء ، كجربير والفرزدق والأخطل وذى الرمة ، وشعراء الغزل البادين والحاضرين كجميل وكثير ونصيب وعمر بن أبي ربيعة ، وشعراء الأحزاب السياسية المختلفة . وبجانب هذا النوع الفني وجد نقد آخر لغوى نحوى نهض به اللغويون والنحاة ، علماء البصرة والكوفة خاصة ، ويقوم على الصلة بين الأدب وأصول النحو واللغة والعروض وإن لم يتجرد هؤلاء العلماء في تقديم عن الذوق الفني مطلقاً ، واتسع النقد فوجدت فيه جوانب جديدة كلاحظة الصلة بين الشاعر وشعره من جهة وبين بيئته من جهة أخرى ؛ فعلى ابن زيد تأثر بالحاضرة وما فيها من أخلاط الناس فقال ذلك من فصاحته اللغوية وملكنة الشعرية وابن قيس الرقيات ليس بفصيح ولا ثقة شغل نفسه بالشرب بتكرير . ومنها ما لحظه الأصمعي من ضعف شعر حسان بن ثابت في الإسلام

لأن الشعر قائم على الأهواء والشر ، فإذا دخل في الخير ضعف . ومعنى هذا أن الشعر صدى للحيل الاجتماعية كذلك . ومنها ما عني به ابن سلام من النظر في انتحال الشعر وصحة إسناده إلى من يسند إليه .

فلما كان القرن الثاني جدت عوامل كثيرة نهضت بالأدب والنقد فأنصل الجنس السامى بالآراى ، واشتد النشاط العلمى ، واستجالت الحياة الاجتماعية الفنية وقامت ثورة على الأدب القديم من بعض خواصه جبرها أبو نواس وعمل في ظلها غيره أمثال بشار وأبى العتاهية ومسلم بن الوليد وغيرهم ممن تزعموا طبقة المحدثين ومهدوا لسواهم سبيل هذا الشعر الحضرى الحديث ، وتأثر الشعر بهذه الاستحالة في ألفاظه ومعانيه وأوزانه وصياغته وإن لم يترك دائرة الغناء إلى القصص أو التمثيل وتبع ذلك قيام النقاد يفضلون بين مذهب من الشعر : قديم يتجه إلى الجاهلية وصدر الاسلام يتخذ منهما مثله ، وحديث يلتفت حوله ويجرى مع مقتضيات الحياة المتجددة ، فيعمق المعانى ويبتكرها ويلتفت إلى العبارة صانعاً أو متصنعاً ، ووقف النقد طويلاً بين هذين المذهبين فوق ما تناول من النواحي السابقة ويستمر الحال كذلك حتى يحل القرن الثالث فاذا بالعلماء والباحثين يتقاسمون الثقافة الاسلامية ، فرجال الدين يعنون بالقرآن والحديث والفقه والأصول ، ورجال اللغة يجمعونها ويدونون النحو والعروض ، والمترجمون ينقبون في آثار الفرس والروم والسريان وينقلون منها إلى العربية الصالح المقبول . وهذه الحياة العلمية هى التى أنشأت الجاحظ وسهل ابن هارون وأبى تمام وابن الرومى وسواهم من الشعراء . والنقد يستحيل كذلك وإذا به يصدر عن ذهنيات أربعة اللغويين ، والأدباء والعلماء الذين أخذوا نصيباً يسيراً من المعارف الأجنبية ، والعلماء الذين تأثروا كثيراً بما نقل عن اليونان . وتنتهى أصول النقد عندهم إلى أصلين عامين : ما يسرى إليهم من العصور السابقة ، وما استجد لهم من أثر الفلسفة والجدل والبلاغة والمنطق .

ولكل فريق مزاجه ومذهبه وما ترك من كتب ورسائل ، وحسبنا أن نذكر المبرد وأبا سعيد السكري من اللغويين ، وابن المعتز من الأدباء ، وابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء من العلماء الأولين ، وقدامة بن جعفر صاحب نقد الشعر والنثر من الذين تأثروا بالفلسفة كثيراً وقد كان من آثار ذلك تفاوت مناحي النقد الأدبي ، والوقوف على خواص الشعر المحدث وما يؤخذ عليه ، وإن لم يبلغ رجاله في التفسير والتعليل والنظام ما بلغه نقاد القرن الرابع . فإذا كان الشعر العربي قد بلغ فيه — في القرن الرابع — ذروته فإن النقد القديم انتهى فيه إلى غايته سواء من جهة سعيه وشموله أو من جهة عمقه ودقته أو من جهة براءته من الحدود الفلسفية إلى درجة واضحة ، ولذلك لتفرد النقاد الأدباء تقريباً بهذا الفن ونضج ملكة الذوق عندهم من كثرة ما درسوا ، ووازنوا ، وجمعوا بين جمال الطبع لتضلعمهم في الأدب القديم وحسن الصنعة من ممارستهم الأدب الحديث فصفا ذوقهم وعاد مهذباً لطيفاً سديداً . وكان نقدهم ممتازاً بالعمق وسعة الآفاق وتحليل الظواهر الأدبية وإرجاعها إلى أصولها الصحيحة وعاد نكراً ما كان يجب قدومه أن يفرضه على الشعر من قوانين المنطق وأصول الأخلاق والفلسفة ، وكانت المعركة بين النقاد تدور حول أبي تمام والبحترى ثم بين المتنبي وخصومه ، وكسب النقد من وراء ذلك عدة كتب ورسائل قيمة تؤرخه في القرن الرابع مثل كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي ، وأخبار أبي تمام للصولي ، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ، عدا كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ورسالة الصاحب بن عباد في الكشف عن مساوي المتنبي ورسالة الخاتمي فيما توارد من المعاني بين أبي الطيب المتنبي وأرسطو . ودخلت مسألة السرقات الشعرية في باب النقد . وكأنه لم يبق شيء نقدي غفل عنه أدباء القرن الرابع أو لم يفتحوا فيه على أقل تقدير^(١) .

وبعد ذلك سار النقد يتأثر مارسمه هؤلاء ، ما استطاع ، في خلال القرون التالية فإذا تدهور الأدب تبعه النقد وإذا صار حرفة متصنعة ميتة إيمات النقد معه حتى كانت النهضة المعاصرة فعادت الحياة الأدبية تسأنف نشاطها من جديد ، وأخذ النقد يستيقظ ويذهب فيه المعاصرون مذهبين رئيسيين تبعاً لما توافر لكل فريق من نوع الثقافة العربية أو الغربية وإن أخذت الثانية تسيطر على الدراسة وتحاول أن تنفرد بالسلطان^(١)

وإنما أشرنا إلى هذا الجانب التاريخي قبل الخوض في تعريف النقد رجاء أن نجد في هذا العرض ما ينفعنا في التعريف بالنقد الأدبي ، وبيان حدوده التي انتهى عندها ، والخطأ التي سلكها إلى غايته في تقدير الأدب ، والفصل في الخصومات والبث في الأحكام . وأول ما نلاحظه أن النقد ليس أحكاماً فارغة طائشة ، بل قائمة على الفهم والتفسير ، والتعليل ، ثم الاحتياط في النتائج الأخيرة أو الأحكام . نعم إن هذه الدرجات لم تكن صريحة في جميع أطوار النقد الأدبي عند اليونان أو العرب كما رأيت ، ولكنها فيما أفهم كانت مضمرة أو موجودة بالقوة في نفوس النقاد إن صح هذا التعبير ؛ فإذا غاب طرفه بن العبد على المتلمس نعت البعير نعت النوق حين قال المتلمس :

وقد أتنأتى الهمم عند أدكاوه بناجر عليه الصيغرية مكدم^(٢)

فقال طرفه استنوق الجمل ؛ أفليس هذا التجريح ثمرة فهم طرفه ، وعده ما فعل المتلمس خطأ بالمقياس إلى ما هو مقدر عند الجاهليين من تخصص كل نوع بأوصافه وإذا فهذا حكم معلل مفسر يكاد يكون موضوعياً أو هو كذلك بالفعل ثم نجد الموازنة بين الشعراء من أبواب النقد الأدبي ، وكانت قبل ذلك وستبقى

(١) أحمد الشايب : المرجع السابق : تمهيد .

(٢) الصيغرية سمعة تكون في عنق الناقة للبعير ، ناجر جمل سريع ويغلب هذا في وصف

الناقة فيقال ناجية . مكدم صلب ، راجع الموشع للرزباني ص ٧٦ .

وسيلة من وسائله وإحدى مقدماته اللازمة ، وكذلك الأخذ أو السرقات الأدبية على العموم ، رأيناها تحتل مكانة ممتازة عند النقاد ، وما ذاك إلا لأن الحكم على مكانة الشاعر كان يتصل بما قد يبتكره من المعاني أو يتبع فيه سواء بصورة ما ، وأخيراً نلاحظ أن الذوق الفردي والاجتماعي كان عمدة النقد الأدبي ومقياسه الأول وإليه مَرَد القضايا والأحكام في تقرير الأدب وبيان درجته الفنية ، فهذا كله يمهّد لتعريف النقد ويسر علينا فهم ما يقال فيه ^(١) .

— ٣ —

فما النقد الأدبي ؟

في المحيط ولسان العرب وغيرها : والتنقاد والانتقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها أنشد سيديويه :

تَنقِي يداها الحصى في كل هاجرة نَفَى الدراهم تنقادُ الصياريف ^(٢)
ونقدتُ الدراهم وانتقدتها أخرجتُ منها الزيف . فهذا المعنى اللغوي الأول يشير إلى أن المراد بالنقد التمييز بين الجيد والردىء من الدراهم والدنانير ، وهذا يكون عن خبرة وفهم وموازنة ثم حكم شديد . وهناك معنى لغوي آخر يدل عليه قولهم أيضاً نقدت رأسه بأصبعي إذا ضربته ونقدت الجوزة أنقدها إذا ضربتها . وعلى ذلك يفسر حديث أبي الدرداء أنه قال : إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك . معناه إن عبتهم واغبتهم قابلك بمثله . فالنقد هنا معناه العيب والتلم أو التجريح . وضده الإطراء والتقريض من قرظ الجلد إذا دبغه بالقرظ

(١) وقد لخص الأستاذ مندور مقاييس النقد العربي في رسالته « تيارات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري » ص ٤٠٠ (مخطوطة) ولكنها دراسة تاريخية تركها لموضعها .
(٢) في وصف ناقة ، تنقى تدق ، الهاجرة شدة الحر . الصياريف مفردة صيرفي بياض اللقود بغيرها من النقود — يشبه نثرها الحصى بنثر الصيرفي الدراهم .

وأديم مقروظ إذا ذبح أو طلى به : وذلك إنما يكون للتحسين والتجميل فالنقد للذم والتعريض للمدح والثناء ومن المعاني التي تستعمل فيها هذه المادة لدغ الحية ، وقبض الدراهم وأخذ الطائر الحب واحدة واحدة . فهذه هي أهم المعاني اللغوية لمادة النقد ، واعلمها أو أكثرها ملائمة لما يراد هنا من معنى ، فقد استعمل النقد في معنى تعقب الأدباء والفنيين والعلماء والدلالة على أخطائهم وإذاعتها قصد التشهير أو التعليم ، وشاع هذا المعنى في عصرنا هذا ، وصارت كلمة النقد إذا اطلقت فهم منها الثلب ونشر العيوب والمآخذ ، وقديماً ألف أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (كتابه الموشح) في مآخذ العلماء على الشعراء ضمنه ماعيب على الشعراء السابقين من لفظ أو معنى أو وزن أو خروج على المؤلف من قوانين النحو والعروض والبيان ، وشاع بجانب ذلك عندنا تقريب الكتب والأشخاص والمذاهب السياسية والاجتماعية والآثار الفنية مما يعد أكثره رياء وبجاملة دون أن يكون له حظ حقيقي من الحق والانصاف . فهذا الاستعمال له أصل لغوي كما رأيت وإن لم يكن هو المقصود المقرر بين النقاد المنصفين .

أما المعنى اللغوي الأول فلعله أنسب المعاني وأليقها بالمراد من كلمة النقد في الاصطلاح الحديث من ناحية وفي اصطلاح أكثر المتقدمين من ناحية أخرى . فإن فيه كما مر معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم . وإذا ما وقفنا عندما يقوله الثقات من النقاد رأيناهم لا يتجاوزون هذه المعاني في حد النقد وفي ذكر خواصه ووظيفته . فالنقد دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها المشابهة لها أو المقابلة ، ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها ، يجري هذا في الحسيات والمعنويات ، وفي العلوم والفنون وفي كل شيء متصل بالحياة . وقد رأينا السابقين الذين كتبوا في النقد العربي أميل إلى حمل لفظ النقد على هذه المعاني المتواصلة ، فنقد الشعر لقدامة ونقد النثر المنسوب له وكتاب العمدة لابن رشيق في صناعة

الشعر ونقده ثم ما يتصل بذلك من كتب الموازنة ، كلها عبارة عن دراسة الشعر أو النثر وتفسيرها وبيان عناصرهما وفنونهما وما يعرض لهما من أسباب الحسن أو القبح ، والتنبيه على الجيد المقبول والردى المنبوذ إلى نحو ذلك مما هو إيضاح وعرض ثم تفسير وموازنة ثم أحكام ونصائح أو قوانين نافعة في فن الأدب منظوماً ومنشوراً .

وهنا نستطيع أن نتقدم قليلاً فنذكر ما يقوله المحدثون في تعريف النقد ، فهو عندهم التقدير الصحيح لأى أثر فنى وبيان قيمته فى ذاته ودرجته بالنسبة إلى سواء . والنقد الأدبى يختص بالأدب وحده وإن كانت طبيعة النقد واحدة أو تكاد ، سواء أكان موضوعه أدباً أم رسماً أم تصويراً أم موسيقياً^(١) فالنقد الأدبى فى الإصلاح هو تقدير النص الأدبى تقديراً صحيحاً وبيان قيمته ودرجته الأدبية . ولايضاح هذا التعريف وتحليله نستطيع أن نذكر بجانبه الملاحظات الآتية :

(١) يبدأ النقد وظيفته بعد الفراغ من إنشاء الأدب ، فالنقد يفرض أن الأدب قد وجد فعلاً ، ثم يتقدم لفهمه وتفسيره وتحليله وتقديره ، والحكم عليه بهذه الملكة المهذبة أو المهمة التى تكون للملاحظات قيمة ممتازة وآثار محترمة . أما القدرة على إنشاء الأدب أو تذوقه فليس فى مكنة النقد خلقهما من العدم وإن كان يزيدها تهذيباً ومضاء . على أن هذه الملكات الثلاث - إنشاء الأدب وتذوقه ونقده - قد توجد معاً متجاوزة متعاونة فى نفس الأدب الموهوب .

(٢) يدل هذا التعريف على أن الغرض الأول من النقد الأدبى إنما هو تقدير الأثر الأدبى ببيان قيمته فى ذاته قياساً على القواعد أو الخواص العامة التى

(١) راجع أصول النقد الأدبى تأليف Winchester ، ص ١ وأصول البلاغة الأستاذ

Genung ، ٥٩١ . والفصل الثانى من « فنون الأدب » ، لنشارتين تعريب زكى نجيب محمود .

يمتاز بها الأدب بمعناه العام أو الخاص وهو النوع التوضيحي الذى يعين على الفهم والذوق . وأما القول فى درجته بالنسبة لغيره فهو فى المنزلة الثانية . ومثله فى ذلك محاولة ترتيب الأدباء ترتيباً مدرجاً حسب كفاياتهم المتفاوتة أو وضع نظام الموازنة بين آثارهم المختلفة — وهو النوع الترجيحي الذى يعنى بالمفاضلة بين الأدباء — وذلك لكثرة الفروق الأساسية بين الشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين ، ولما نجد منهم طائفة بينها مشابهات تسمح بعقد هذه الموازنة التى تحدد براعاتهم المتقابلة . فإذا سئلت عن جرير والفرزق والأخطل . أيهم أشعر ، فجوابك السديد هو أن كلا منهم أشعر ، معنى ذلك أن كلا منهم يفضّل زميليه ببعض الصفات اللفظية أو المعنوية أو الموضوعية فى حين أنك قد لا تجد بينهم من وجوه الاتفاق ما يكفى لعقد موازنة صالحة . ومع ذلك فيستطيع كل إنسان أن يؤثر ما يحبه ويرفض ما عداه من آثارهم جميعاً ، وعلى النقد توضيح الميزات الجوهرية لتفوق كل شاعر ، فيساعدنا بذلك على تقدير كل منهم تقديراً أقوم وأهدى سبيلاً^(١) .

(٣) ولهما تكن وظيفة النقد وغايته التى يعمل لتحقيقها فلا بد للناقد أن يكون ناقد النظر ، سريع الخاطر ، مهذب الذوق قادراً على المشاركة العاطفية مع الأديب والبراءة من المؤثرات التى تفسد عليه أحكامه كما يمر فيما بعد ، وذلك كله فوق ثقافته الأدبية العلمية ، والتمرس بالأدب ، ومعرفة أطواره التاريخية ، وصلاته بالفنون الأخرى ، وحسن فهمه وتعمقه إلى أبعد غاية ، ليتيسر له الإنصاف والحكم الصحيح . وقد استطاع بوب (Pope) أن يرد المصادر الرئيسية التى يستقى منها النقد إلى مراجع ثلاثة (١) وهى فكرة الطبيعة (٢) وفكرة آثار السلف (٣) وفكرة العقل ، ولا بد من الرجوع إلى الثلاثة جميعاً . وليس معنى هذا أن الأديب مطالب بأن يكون موزعاً بين هذه

(١) لاسل أهركرومي : قواعد النقد الأدبي ، ترجمة محمد عوض ، ص ١٦٣ .

الثلاثة لأن سلطان كل من هذه المراجع مثبت لسلطان الآخرين ، فالواجب أولاً أن نتبع الطبيعة ، ولكن لكي ينسنى لك ذلك لابد من دراسة آثار القدماء لأن القدماء كانوا على وفاق مع الطبيعة ، وليس هناك خلاف بين الطبيعة وبين الشعر القديم ، ودراسة القدماء معناها دراسة الفن الذي ينطبق دائماً على العقل ، وسيأتى إيضاح ذلك فى أثناء الفصول التالية .

(٤) وإذا كان موضوع الأدب هو الطبيعة والإنسان ، فإن موضوع النقد الأدبى هو الأدب نفسه أى الكلام المنشور أو المنظوم الذى يصور العقل والشعور يقصد إليه النقد شارحاً ، محلاً ، معللاً ، حاكماً ، يعين بذلك القراء على الفهم والتقدير ويشير إلى أمثل الطرق فى التفكير والتصوير والتعبير . وبذلك يأخذ بيد الأدب والأدباء والقراء إلى خير السبل وأسمى الغايات . والنقد يقوم على ركنين مباشرين الناقد والمنقود .

ولما كان للذوق الأدبى دخل قوى فى باب النقد الأدبى ناسب أن نفرّد للبحث فيه فصلاً خاصاً بعقب التعريف بالنقد ذاته .

الفصل الثاني

في الذوق الأدبي

- ١ -

لعل كلمة الذوق Taste أ كثر الكلمات دوراناً على السنة النقاد لشدة اتصالها بما يصدر من أحكام ، ولأن الذوق في رأى الانفعاليين الفَيْصلُ القَدْ في وصف الأدب وتذوقه سواء أ كانت نتيجة التذوق والتأثر ثابتة أم متغيرة بتغير الأوقات والبيئات . لهذا كان من اللائق أن نفرده هذا الفصل محاولين كشف الغطاء عن بعض جوانبه تاركين جانباً هذه النقط الغامضة التي لما ينتهى البحث العلمى فيها إلى رأى واضح فصار الكلام عنها مبهماً مضطرباً لا يدل على شيء .

في المحيط : ذاقه ذوقاً وذوقاً ومذاقاً ومذاقة اختبر طعمه ، وتذوقه ذاقه مرة بعد مرة . وفي المنجد الذوق ملكة تدرك بها الطعوم ، والذوق الطبع يقال هو حسن الذوق للشعر أى مطبوع عليه . ويقول ابن خلدون في مقدمته بعد تفسير الذوق بأنه حصول ملكة البلاغة للسان : « واستعير لهذه الملكة ، عندما ترسخ وتستقر ، اسمُ الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان ، وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه ، وأيضاً فهو وجدانى للسان كما أن الطعوم محسوسة له فليل له ذوق » (١) .

ومعنى هذا أن الذوق فى معناه الحسى الأول علاج الأشياء باللسان لتعرف

طعمها ، ويتبع ذلك الدلالة على ثمرة الذوق من حلاوة أو ملوحة أو مرارة أو حموضة ، ثم النفور من الأشياء أو الاطمئنان إليها ؛ فهنا مقدمة وحكم وعمل . وانتقلت الكلمة بعد ذلك إلى علاج الأطباء بالنفس لتعرف خواصها الجميلة أو الذميمة كحسن الألوان وتناسبها وجمال الألفاظ وبلاغتها وروعة الأنغام واتساقها . وعكس ذلك . وبهذا دخلت دائرة الفنون الجميلة لتدل على هذه الملكة أو الموهوبة التي تدرك مافي الآثار الفنية من كمال وجمال أو نقص ودمامة . وكانت في الأدب لتدرك حسن التعبير اللغوي أو قصوره فتمهد بذلك للحكم السديد والتفسير الواضح الصحيح .

ويعرف الذوق بأنه قوة يقدر بها الأثر الفني ، أو هو ذلك الاستعداد الفطري للكاتب الذي نقدر به على تقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته بقدر ما نستطيع في أعمالنا وأقوالنا أفكارنا^(١) ويقول الأستاذ أحمد ضيف : « ولا يصح أن يبنى النقد على الأذواق الخاصة لأن الذوق استحسن ما يحبه الانسان ويميل إليه وهذا غير ما يراد من النقد ، إذ النقد الصحيح تحليل فكر شخص آخر غير فكر القارئ نفسه واندماج الانسان في نفس غيره ليفهمه بفكره ويدرك عقله بعقله والذوق تحليل نفس القارئ وفكره لمناسبة ما يقرأ وبسبب ما يجده مما هو في نفسه في كلام غيره إذ شعور القارئ بسروره ورضاه عما يقرأ هو في الحقيقة ناشئ من أنه وجد ما يحبه وما يميل إليه وذلك شيء من خواص نفسه وميولها الذاتية فكأنه إنما وجد فيما يقرأ نفسه لا نفس الكاتب وعجب بميوله وآرائه لا بميول الكاتب وآرائه أو أنه وجد إنساناً آخر صور نفسه بالصورة التي هي عليها ووجد أفكاره يعبر عنها غيره فهو إذ فهم ذلك فإنما يفهم نفسه »^(٢) ومن ذلك يكون الذوق الأدبي هو القوة التي يقدر بها الأدب . ومعنى قدر الأدب بيان قيمة نصوصه

(١) حامد عبد القادر : في علم النفس ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .

(٢) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ٩٢ .

ودرجتها كما ذكر ذلك في تعريف النقد ، فكأن الذوق هو وسيلة النقد الأدبي وأداته ، وهذا صحيح إذا كنا نفهم الذوق على أنه خلاصة العوامل الفطرية والمكتسبة التي يقوم عليها نقد الآداب .

وليس الذوق ملكة بسيطة كما قد يتوهم ، ولكنه مزيج من العاطفة ، والعقل ، والحس ، وربما كانت العاطفة أهم عناصره وأوسعها سلطاناً في تكوينه ومظاهره وأحكامه ، وكان تأليفه هذا من أسباب اختلافه باختلاف الأفراد إذ يندر أو يستحيل أن تجد اثنين يتفقان فيما يصيبان من هذه العناصر كيفاً وكماً ، وكان لذلك مظاهره في نقد الأدب ؛ فمن غلب عليه عنصر الفكر أثر شعراء المعاني أمثال أبي تمام وابن الرومي والمتنبي والمعري وفضل كتاب الثقافة كالجاحظ وابن خلدون ومن غلبت عليه العاطفة فتن بشعراء النسيب الحماسة والعتاب ، وبالمخطباء والوصاف ، ومن كان شديد الحس فضل أسلوب البحترى وشوقي كما يفضل الموسيقى والرسم الجميل .

والمقرر أن الذوق في أصله هبة طبيعية تولد مع الإنسان فيعبر عنها بصفاء الذهن وخصب القريحة وجمال الاستعداد ، ويظهر أثر ذلك في ميل الناشئ الموهوب منذ الطفولة إلى كل جميل من الأدب والفن ومحاولة تقليده ونجاحه في ذلك دون غيره ممن سلبوا هذا الاستعداد ، فهم عاجزون عن هذا التذوق وعن فهم الجمال ومحركاته ، ولكن يبلغ بهم الدرس إلى نبوغ وإن صقل مواهبهم بعض الشيء . وبعد ذلك يأتي التهذيب والتعليم فليس من شك أن الدرس ينمي الذوق ، ويهذبه ، ويسمو به إلى درجة محدودة ، فالأديب ذو الفطرة الذواقة ، يفيد من قراءة الأدب ومعالجة الفنون ، فتراه بعد قليل مصقول الذوق ثاقب الذهن يضع يده على العبارة البليغة ، والخيال الجميل ويدرك صدق العاطفة وينفر من كل مضطرب من الأدب كاذب ، ويكون لتربيته العقلية والعلمية دخل كبير في كمال

أحكامه الأدبية واتزانها كما يكون أقدر على إنشاء الأساليب البارعة ، وصوغ الأخيصة الجميلة ومدق التعبير عن أسمى العواطف وأقواها ، وإذا سألته عن سر البلاغة أو العى استطاع التعليل وأصاب وجه الصواب . من أمثلة ذلك ما لحظه عبد القاهر الحرجاني^(١) في قول الشاعر — وأن لم يفسره عبد القاهر — وتمثل به أبو بكر حين أتاه كتاب خالد بالفتح وهزيمة الأعاجم :

تمنّانا ليلقانا بقمٍ تخالُ بياضَ لأهمهم السرابا^(٢)

فقد لاقيتنا فرأيتَ حرباً عواناً تمنعُ الشيخَ الشرابا^(٣)

أنظر إلى موضع الفاء في قوله : فقد لاقيتنا فرأيتَ حرباً . هذا كلام عبد القاهر .

وهذه الفاء — فيما أرى — صلة بين أمل العدو الخائب وشماتة عدوه الظافر ، وهى كذلك رمز المفاجأة الخطيرة ، والوجه المنتصر يلقى الوجه المغلوب وكذلك في قول العباسي بن الأحنف .

قالوا : خراسان أقصى ما يُراد بنا ثم القبول ، فقد جئنا خراسانا

فإنها هنا رمز الأمل الموعود ، والرغبة في العودة ، ومحاسبة القاتلين ، والتفاته القلب إلى الوطن الأول .

وانظر إلى هذه الصورة الجميلة في قول الله تعالى « واشتمل الرأس شيبا » التى ترى لك المشيب يشيع فى الرأس ويأخذ بنواحيه حتى لم يبق من السواد شىء أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به ، وقول الشاعر :

سألتُ عليه شِبابُ الحى حين دعا أنصاره بوجوه كاللدنانير

فانه يصوّر النجدة الزاخرة ، والعاطفة المشتركة ، والبهاء النضر ، والحاسة

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٧٣ وما بعدها . (٢) اللأم جمع لأمة بمعنى الفرع .

(٣) الموان أشد الحروب .

الملتبة ومثل ذلك قول المتنبي في سيف الدولة وقد بنى قلعة الحدّث على درب الروم :

غصبَ الدهرَ والملوكَ عليها وبنّاها في وجنة الدهر خالاً
فهذه صورة قوية جميلة لقيت كفاءها من التعبير القوي الجزل ، فأتى بالخال منصوباً على الحالية من الهاء ، ثم صور الدهر إنساناً يقصد إليه سيف الدولة ويزين صفحة وجهه بأجل الأعمال أو بأجل السمات .

— ٢ —

والذوق بعد ذلك أقسام ، منه الذوق الحسن وقد يسمى السليم أو الجميل أو الصحيح أو نحو ذلك مما يشير إلى تهذيبه وصدق أحكامه ودقة فرقه بين الأدب الصادق الجميل والأدب المتصنع السخيف ، ومنه الذوق الرديء أو السقيم أو الفاسد وهو الذي لا يحسن التفرقة بين أنواع الأدب من حيث القيمة الفنية أو الذي يؤثر السخيف المطرّح أو الذي لا يحسن شيئاً مطلقاً . والنوع الأول هو المراد في باب النقد وإليه تنصرف كلمة الذوق إذا أطلقت وقد وصفه صاحب الوساطة بقوله : « فاعلمنا معنى الذوق المذهب الذي صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة وألم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبيح » وأصحاب الذوق السليم قليلون وهم مضطرون دائماً إلى حفظ أذواقهم من الآفات التي تفسدها . ومنه حسبي يتصل بالطعوم والألوان والأصوات والروائح والمناظر فلا يعيننا هنا مباشرة . ومعنوي يتجه إلى الأخيلة والأفكار والأخلاق والمذاهب والأنظمة والقوانين .

وقد يقسمونه إلى ذوق سابي أو قابل يدرك الجمال ويتذوقه دون القدرة على تفسير ما يدرك أو تحليله ، وصاحبه عاكف على نفسه يظهر بالتمتع الأدبية ويقنع بها فتضيء نفسه وتغذي عواطفه ووجدانه ، وذوق إيجابي وصاحبه يدرك الجمال

ويفرقه من الدمامة ثم يعبر عن ذلك مبيناً موطنه ثم يعلل كل صفة أدبية ،
يسمع أويقراً البيت أو القصيدة أو الرواية فيستطيع بسهولة أن يدلك على موطن
الحسن أو القبح ذا كراً أسباب ذلك مقترحاً ما يجب أن يكون . وقد رأيت طرفاً
من أمثلة ذلك فيما مضى ، على أن من أسباب الجمال ما لم يكن وصفه أو تعليقه
لأنه نتاج عبقرية معقدة أثمرته فكان عجبياً ساحراً تسكن إليه القلوب وتحار في
تعليقه العقول ، هو ذلك النوع الذي يقرؤه سواد الناس فيفهمونه ثم يقرؤه الخاصة
فيفتنون به ويحارون في تعليل حسنه ثم لا يحسن واصفهم إلا أن يقول : هذا هو
السحر الحلال^(١) وقد يكون من أسباب سحره سمو الخيال أو بساطة الأداء أو
طبع الأديب ونفسيته العجيبة أو كل ذلك وسواه . وقد بينت في غير هذه الفصول
كيف عجز ابن قتيبة عن تبين أسرار الجمال الأدبي في قول المملوط : —

ولما قضينَا من مَنى كلِّ حاجةٍ ومسحَ بالأركانِ من هو ماسحُ
وشدَّتْ على حُذْبِ المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رأمُحُ
أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا وسالتْ بأعناقِ المطىَّ الأباطيحُ
فوصفها بأنها أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع ثم لم ير فيها غير هذه المعانى
العادية التى هى عنصر الفكرة غافلاً عن العاطفة الصادقة والخيال الجميل^(٢) وربما
عرضنا لنقد هذه الأبيات فيما يلى .

وربما كان أهم تقسيم للذوق هو انقسامه إلى عام وخاص . ونلخص هنا
ما أورده الأستاذ طه حسين فى رسالته « حافظ وشوق » : هناك ذوقان لكل
واحد منا حظ منهما يختلف قوة وضعفاً ، ويتفاوت سعة وضيقاً باختلاف ما لشخصيته
من القوة والظهور ، هناك ذوق فى عام يشترك فيه أبناء الجيل الواحد فى البيئة

(١) زكى مبارك : الموازنة بين الشعراء ، ص ٤٥ .

(٢) راجع صحيفة دار العلوم عدد ٢ ، ص ٣ من السنة الثانية وأسرار البلاغة ص ١٥ .

الواحدة وفي البلد الواحد لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعاً بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم ، وهذا الذوق يتسع ويضيق ، ويقوى ويضعف ، فأهل مصر يشتركون فيه اشتراكاً قوياً وهذا الاشتراك هو الذى يجمعهم على الإعجاب ببعض الآثار الفنية . وهذا الذوق يضيق أحياناً ويتأثر فى ضيقه هذا بالظروف التى تحيط بالطبقات والجماعات ، فأهل مصر على اشتراكهم فى هذا الذوق العام تتفاوت حظوظهم منه بتفاوت بيئاتهم وجماعاتهم فلأهل الأزهر ذوق خاص يكادون يستبدون به وقريب منه ولكنه يفارقه ببعض الشيء ذوق مدرسة القضاء ودار العلوم . وللجامعيين ذوق خاص أو قل أذواق مختلفة : ذوق يتأثر بالذوق الانجليزى وآخر يتأثر بالذوق اللاتينى ، ذوق يتأثر بالعلم وآخر يتأثر بالأدب وثالث يتأثر بالتاريخ ورابع يتأثر بالفلسفة وعلى هذا النحو . وهناك ذوق آخر فنى يتأثر بهذا الذوق العام ولكنه مع ذلك متأثر بالشخصية الفردية أو هو مظهر ومرآة يمثلها صادقاً يستبد به الفرد أو يكاد يستبد به لا يشاركه فيه أحد غيره . وهذان الذوقان — العام والخاص — هما الذان يقضيان بأن هذه القصيدة الشعرية الرائعة تنشأ فنشترك فى الإعجاب بها أو قل فى مقدار من الإعجاب بها عام سواء ، أو كأنه سواء بيننا . ثم لا يمنع ذلك أن يكون لكل واحد منا إعجاب خاص بالقصيدة كلها أو باليب من أبياتها لا يستطيع أحد أن يشعر به ولا يقدره . والحياة الفنية إنما هى مراج من هذين الذوقين فيه الوفاق حيناً ، وفيه الصراع حيناً آخر ، والذوق العام هو الذى يعطى الحياة الفنية حظاً من الموضوعية ، وهذه الأذواق الخاصة هى التى تعطى الحياة الفنية حظاً من الذاتية^(١) .

ويمكن أن يضاف إلى هذين قسم ثالث هو الذوق الأعم الذى يشترك فيه

الناس بحكم طبيعتهم الإنسانية التي تحب الجمال وتتذوقه طبعياً كان أم صناعياً ، وهذا القدر المشترك بين النفوس البشرية هو الذى يجمع بينها أو بين المتأدين منها فى الإعجاب بهومير وشكسبير وجوته والمعرى والمتنبى ، ثم يجمع بينها فى الإعجاب بمشاهد الطبيعة الجميلة ، وبالفصائل العامة والأفعال الحميدة .

— ٣ —

وهذا الذى ذكر من أقسام الذوق يقتضى القول فى هذه العوامل التى تخالف بين الأذواق فتنوعها أو تجعل ذوق الفرد أو الجماعة يستحيل بين آونة وأخرى ، ولا شك أن الذوق الأدبى ، كالأدب ، والشخصية ، والأخلاق ، ليس صلباً ثابتاً وإنما يخضع لمؤثرات تتوارد عليه ، فتغير من خواصه ، وتجعل له تاريخاً ذا أطوار ، نذكر هنا أهمها :

(١) البيئة ويراد بها هذه الخواص الطبيعية والاجتماعية التى تتوافر فى مكان ما ، فتؤثر فيما تحيط به آثاراً حسية ممتازة . وقد فرغ الباحثون من إثبات ذلك ودراسة علله ومظاهره ، ويعيننا هنا ما يتصل بالذوق الأدبى ، فإنه لما كان مزيجاً من العاطفة والعقل والحس كان عند البدو غيره عند أهل الحضار لما بين البيئتين من فروق مادية ومعنوية تطبع عناصر الذوق بطابعها فى كليهما هى فروق بين الخشونة والركة ، وبين الجهالة والمعرفة ، وبين الاضطراب والاستقرار ، وبين البساطة والتعقيد ، وهى فروق بين ذوق يطمئن إلى العناصر الخيالية الصحراوية ، وإلى المعانى القرية الصريحة والفضائل البدوية والحرية التى لا تحد والعبارات الطبيعية وبين ذوق لا يرضى إلا بصورة الترف ، وعميق المعانى ، وأخلاق المدن ، والاحتياط فى الأداء والصنعة أو التصنع . وتجذب ذلك واضحاً عند أهل البادية الذين كانوا يفضلون زهيراً وذو الرمة وعند الكوفيين الذين

كانوا يؤثرون الأعشى ؛ فزهير بدوى خالص ، شمره صورة للبداوة لفظاً ومعنى وخيالاً ومثله ذوالرمة المتبدى . وأما الأعشى فقد تحضر ولان شمره وقال فى اللهو والحر مما يلائم ذوق الكوفيين الذين تأثروا بالخصارات المختلفة وكان فيهم الحجان والمترفون ، فاذا تغيرت البيئة تغير معها الذوق الأدبى منشئاً أو ناقداً ترى ذلك ممثلاً فى هذه القصة^(١) التى تنسب إلى على بن الجهم لما ورد على المتوكل بغداد وأنشده مادحاً :

أنتَ كالدُّلْوِ لا عد مناك دَلْواً من كثير العَطَايا قليل الذُّنوبِ
أنتَ كالسَّكْبِ فى حِفَاظِكَ للودِّ م وكالتيس فى قِرَاعِ الخطوبِ
فهم بعض الحضور بقتله ، فقال الخليفة : خل عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوره ، ولقد توهمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمناً وقد لانعدم منه شاعراً مجيداً فلما أقام فى الحضر بضع سنين قال الشعر الرقيق المتزن الملائم للذوق الحضري الجديد والبيئة الطارئة مثل قوله :

عُيُونُ المهابين الرُّصَافَةِ والجِسرِ جَلَبْنَ المَوى من حيث أدرى ولا أدرى
أعدنَ لى الشوق القديمَ ولم أكنْ سلوتُ ولسكنْ زدن جراً على جمر
وكان لهذه البيئات المختلفة التى احتلها الأدب العربى آثارها المختلفة فى تفاوت الذوق الأدبى وتباين خواصه سواء ذلك فى العصر الواحد أو فى العصور المتتابة ، فلا شك أن عدى بن زيد فى الجاهلية يختلف عن زهير وطرفة فى الذوق الأدبى لطول مقام عدى فى الحاضرة فاكسب رقة وسلاة لا تجددهما عند زميليه فى جزالتهما وبداتهما الخشنة ، ولا شك أيضاً أن الذوق الأدبى كان على شطآن دجلة والفرات فى العصر العباسى غيره فى جزيرة العرب ، لما لهذه البيئة الحديثة من خواص تجمعت وطبعت النقاد والأدباء طابعاً حديثاً فى

(١) لهذه القصة عدة روايات ولو كانت مفتعلة لكنت تصويراً ايضاحياً لما نحن بصدده .

تذوق الأدب وفي إنشائه ، ويمكن الإشارة إلى تباين الذوق في الحالين بما أنكر ناقد على أبي الطيب أن يصف درع عدوه بالحصانة وأسنة أصحابه بالكلال حيث يقول :

تخطر فيها العوالى ليس تنفذها كأن كل سنان فوقها قلم
فيرد عليه الجرجاني بأن العربي يقول : نجى فلاناً كرم فرسه وإن مذاهبهم المحمودة التي يوصف بها الشجعان هي ترك التحصن في الحرب وانهم يرون كثرة الاستظهار والاستعداد بالجبن والوقايات ضرباً من الجبن ويعدون كثرة التأهب دليلاً على الوهن فالمتنبى حكى الذوق القديم ، والناقد حديث الذوق ، والجرجاني مؤرخ مفسر يقول : إن ذوق المتنبى ظاهرة عربية نبتت في العصر الجاهلي إذ كان العرب يصفون خيل الأعداء بالسبق والنجاء وينسبون إلى خيولهم التقصير ولا يرون في ذلك عيباً^(١) .

ومما يمكن الاستشهاد به ما حدث به أبو الحسن بن وهب قال : قلت لأبي تمام : أنهم المعتصم بالله من شعرك شيئاً ؟ قال : استعاذني ثلاث مرات : —
وإن أسمع من تشكو إليه هوى من كان أحسن شيء عنده العذل
واستحسنه ، ثم قال لابن أبي دؤاد : يا أبا عبد الله ، الطائي بالبصريين أشبه منه بالشاميين^(٢) فان ذلك يدل على اختلاف المذهب الشعري بين هذين المكانين أو اختلاف الذوق الأدبي في البصرة منه في الشام .

(٢) الزمان ، ويراد به العوامل المستحدثة التي تتوافر لشعب ما في فترة من الفترات . ومن المقرر أن تقدم الزمان وانتقال الإنسان من عصر إلى آخر في درجات الرقي من شأنه أن يغير في مقومات حياته فتزداد معارفه ، وتعمق معانيه ، وترقى فنونه وتلين حياته وتتعدد مشاهداته ، ويتأثر بغيره من الأمم ويظهر على

(١) الوساطة ص ٣٢٨ صبيح .

(٢) أخبار أبي تمام ص ٢٦٧ .

ثقافات أجنبية عديدة الجوانب ويتهذب عنصره الإنسانى فيتغير لذلك ذوقه ، وقد يتغير من البساطة إلى التعقيد ومن الخشونة إلى الرفة ، ومن الطبع إلى الصنعة أو التصنع ، وبالجملة يصبح ذوقاً حضرياً بعدما كان بدوياً أو يترقى فى درجات الحضارة فيتشكل بما يتقرر فى عصره من أساليب متبعة ومذاهب مبتكرة وبدائع رائعة ، وهكذا يكون الذوق الأدبى حلقة تاريخية تصور خلاصة الجهود الثقافية والتهديبية لعصر من عصور التاريخ الأدبى ، تجد أمثلة ذلك واضحة فى استعالة الذوق الأدبى بين العصر الجاهلى وما ولىه من العصور إلى اليوم ؛ وعندى أن تاريخ الذوق يوازى تاريخ الأدب والنقد الأدبى ، فهى كلها مظاهر فنية متلازمة ، وعن الذوق يصدر الأدب وإليه مرد نقده ، وعلى حسب ما يكون ، ينشأ الأدب وتقدر عناصره .

جاء الإسلام وأخذ يحيل الحياة الجاهلية إلى حياة حضرية مهذبة ، وأخذ الأدب فى طريق الحضارة لأن ذوق الشعراء والكتاب والخطباء سلك طريق الحياة فلم يحل العصر العباسى حتى كانت الحياة الإسلامية قد تغيرت فى عناصرها الرئيسية وثبتتها الحياة الأدبية ووجد أدبان قديم وحديث ، أو قل وجد ذوق جديد ينمى على الأدب القديم طرائقه فى الأداء وينكر على مقلديه انصرافهم عن الحاضر القريب إلى الماضى الغريب ، وظهر ذلك الجديد فى ألفاظ الأدب وعباراته ، وفى خياله الحضرى ، وفى المعانى المبسكرة العميقة وفى أوزان الشعر وفى بعض فنونه المستحدثة أو التى كثر القول فيها ، وكانت الصنعة البديعة متأثرة بالفن الفارسى الدخيل ، والبحور الصغيرة ملائمة لحياة المرح واللهو ، وأخذ أبو نواس ينمى على الشعراء ذكر الأطلال والدمن ويحمل محلها فى ديباجة قصيدة الحمر والبساتين مسائراً الزمن مشتقاً موضوعاته ومعانيه من حياته الواقعية ، وكان بشار وابن هرمة والعتابى همزة وصل بين القديم والجديد

حتى كان أبو تمام وابن المعتز وغيرهما الذين مثلوا الأدب الجديد ، وقام النقد أو الذوق الأدبي يسائر هذا الأدب الجديد حتى نرى الأصمعي اللغوي يقدم بشارا على مروان بن أبي حفصة ويعلل ذلك بتجديد بشار وسعة بديعه وعدم ذلته لمذهب الأوائل ، وكان الذوق القديم قانعا بطبعية التعبير وقرب المعاني والاستعارات فاذا بالذوق الحديث يعمد إلى الصنعة أو التصنع البديعي ، ويتعمق وراء المعاني ، وتركيب الاستعارات وصرنا نسمع مثل قول أبي تمام :

فالشمسُ طالعة من ذا وقد أفلت والشمسُ واجبةٌ من ذا ولم تجب
في حرصه على المطابقة ، وقول المتنبي مبالغا إلى درجة الإحالة : —
وضاقت الأرضُ حتى صار هاربُهم إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنه رجُلا
أو مبعداً في الاستعارة إذ جعل للطيب والبيض واليلب قلباً وليست هناك مناسبة ولا سبب ، وذلك حيث يقول :

مسرةٌ في قلوب الطيب مفرقةٌ وحسرةٌ في قلوب البيض واليلب

ومن مظاهر استحالة الذوق باستحالة الزمن ما كان في القرن الثالث من تأثر بعض الأذواق بالناحية العلمية المنطقية كما تراه عند قدماء وابن قتيبة ثم ضعف ذلك ، ورجعة السلطان الأدبي لها في القرن الرابع ، ولقد رأينا البحتري لسلامة طبعه وفنية ذوقه ، يصيح في وجه معاصريه من مناطق القرن الثالث لما حاولوا التشريع للأدباء فيقول :

كلفتمونا حدودَ منطقكم في الشعر يكفى عن صيدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ، ما نوعه وما سببه^(١)

والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طوأت خطبه

واسألنا الآن ، أيظمن ذوقنا الأدبي إلى البديع أو التكرار أو المبالغة أو

(١) ذو القروح : امرؤ القيس .

المدايح أو تقليد السابقين أو فن المقامات أو الأدب الفارغ الذى لا يدل على جديد فى التفكير أو التصوير ؟ الحق أنه منذ مات شوقي وحافظ أو قبل ذلك أخذ الشعر العربى يخضع لذوق حديث متأثر بالثقافات الأجنبية ، متصل بخواص هذا العصر الحر المذهب الصريح . كذلك النثر نقي التكلف ، والبديع والتصنع وأخذ يفيض سهلاً غزيراً غنياً بالمعاني والموضوعات ظاهر الوحدة حافلاً بكل أو بأكثر ما تفيض به الآداب الإنسانية .

(٣) الجنس ، وهو فى أصله ثمرة المكان والزمان ، لأن معنى الجنس أو الأصل الواحد جماعة سكنوا مكاناً واحداً وخضعوا فى حياتهم لعوامله عهوداً طويلة فنشأت فيهم طائفة من العادات والأخلاق وطرق الفهم والادراك مما كونه البيئة فى مواهبهم واستعدادهم على شكل خاص يخالفون فيه سوامم ممن أنجبتهم بيئة أخرى مغايرة ، وكلما تقدم الزمان رسخت فى نفوسهم هذه السمات النفسية والعقلية ، وكانت لها مظاهرها فى الأذواق الأدبية وفى غيرها من ميزات الشعوب المقررة الآن . وإنما أفردنا هذه المسألة بالملاحظة لأن افتراق الطوائف من عهد بعيد ثم قوة آثار الأعمال التى نزلتها وما نشأ عن ذلك من فروق حسية ومعنوية رسخت واستمرت بالوراثة والتربية ، كل ذلك جعل مسألة الجنس أشبه بالأصول الطبيعية .

والذى يعيننا هنا ما ذكر سابقاً من أن لكل جنس طابعه فى الذوق الأدبى

يقوم على الخواص المعنوية والجنسية لهذا الجنس وقد لوحظ من مظاهر ذلك^(١) ميل اللاتينيين إلى رقة الأسلوب وجماله وإلى حرية الأداء وروعة الخيال وذلك فى الآداب الفرنسية والابطالية ثم ميل الجرمانيين إلى الجزالة والقوة والميل إلى التجديد . وذلك واضح فى الأدب العربى لما تناولته الأجناس المختلفة فظهرت فيه طبائعها المختلفة وأذواقها المتباينة إنشاءً ونقداً : ظهر الذوق الفارسى فى بشار

(١) راجع : مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف ، ص ١٢٤ .

وأبي نواس وابن المقفع وسوام وظهر الذوق الرومى فى ابن الرومى والمصرى فى البهاء زهير . ويستأنس لذلك بحكاية بشار بن برد لما قال بيته المشهور :

بكرًا صاحِبِيَّ قبلَ المهجيرِ إن ذاك النجاحَ فى التبكيرِ
قال له خلف الأحمر : لو قلت يا أبا معاذ مكان - إن ذاك النجاح - بكرًا فالنجاح
كان أحسن فأجابه بشار : إنما بنيتها أعرابيةً وحشية فقلت إن ذاك النجاح كما
يقول الأعراب البدويون ولو قلت بكرًا فالنجاح ، كان هذا من كلام المولدين
ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة^(١) ، هذا ، وكل من الناقد
والمنقود مولى أعجمي . أما البهاء زهير فقد كان شعره حكاية الأسلوب المصرى فى
جده وهزله وفى روحه ومعانيه فنسمعه فكانت تسمع الشعب القاهرى يتحدث
ويتحاور^(٢) وابن الرومى فى تسلسله واستقصائه وطول نفسه مثال الذوق الرومى ،
وهذا أبو نواس يصور الخمر فارسية فى بيتها أو فى بنى جنسه فيحسن التصوير حتى
يعجب الجاحظ ويتحدى ابن الأثير ، وذلك حيث يقال أبو نواس : -

ودارِ ندائى عطلوها وأدلجوا	بها أثرُ منهم جَدِيدٌ ودارِ
مَسْأَحِبٌ من جرِّ الزقاق على الثرى	وأضغاثُ رِيحانٍ جَنِىٍّ وَيَابِسُ
حَبَسَتْ بِها صَحْبِي فجددتُ عهدَهم	وإِنِّ على أمثالِ تلكَ الحابسِ
نُدَّارِ علينا الراح فى عَسَجَدِيَّة	حَبَّتْها بأنواعِ التِصاوِيرِ فارسُ
قَرَارُتُها كَسرى وفى جَنَباتِها	مَها تَدَارِيها بالقِمَى القوارِ
فللخمرِ ما ذُرَّتْ عليه جُيُوبُها	وللماءِ ما دارَتْ عليه القلائِ

ومهما يكن من أسباب جمال هذه الأبيات فإنها من غير شك صورة فارسية
تعدُّ صدقًا لما غلب على خيال الشاعر أو على ذوقه ، وكان أبو نواس فى كثير من

(١) الإيضاح للخطيب القزوينى ، ص ١٧ ، طبعة صبيح .

(٢) أحد الشايب : البهاء زهير ص ١ .

شعره يدل على جنسه كما كان ابن المقفع أو عبد الحميد أو غيرها فارسي النثر العربي أو الإسلامي .

ولمناسبة ما ، نذكر هنا اختلاف الرجال من النساء في الذوق الأدبي ، فمن يقرأ شعر الخنساء وليلى الأخيلية ويقرنه بشعر الرجال في عصرهما وأقطارهما يجد فرقاً واضحاً ، فالنساء أرق أسلوباً ، وأقرب معاني ، وأبسط خيالاً ، ولعل شعر الخنساء لا يعدو أن يكون نوحاً على الموتى المهالكين . وهذا الذي ذكر عن الجنس قديماً يمكن ملاحظته في عصرنا هذا ، فلامصريين ذوق يختلف من ذوق الشاميين أو المغاربة أو العراقيين وقد مر شيء من ذلك .

(٤) التربية ، وهي تتناول آثار الأسرة والتعليم ، والتنشئة الخاصة ، فقد تجد جماعة من جنس واحد وبيئة واحدة وزمان واحد ، وهم مع ذلك متباينو الأذواق بسبب ما اختلفوا في الثقافة والدراسة والتهديب الذي ظفر به كل منهم ، والحياة الخاصة من لين وخشونة وفضائل وأورذائل ، وصحب وعشير ، ووقوف عند تقاليد الشعب أو اتصال بنظم أجنبية إلى نحو ذلك مما نشهد مثله قديماً وحديثاً . فان بيننا الآن من درس في المعاهد الدينية الخالصة فكان ذوقه نحويّاً دينياً يرتاح إلى أساليب الفقه والنحو والأصول والجدل ، ومن درس في المعاهد المدنية فكان ذوقه طريفاً يحب السهولة والجمال وأساليب الصحف أو الكتب المنسقة الخاضعة للمناهج العلمية في الموضوع والشكل ، ثم من أخذ من كل طرفاً فذوقه يجمع بين جلال القديم وجمال الحديث . وهناك من غلبت عليه النزعة الانجليزية أو الفرنسية فكان ذوقه أقبل لأداب هذه الأمم دون الأدب العربي وهكذا .

كان شوقي وعبد المطلب وحافظ إبراهيم واسماعيل صبرى يعيشون معاً ومع ذلك فلكل منهم ذوق في أدبه يخالف به جميع الآخرين ، وبيننا الآن كتاب تختلف أذواقهم وأساليبهم باختلاف التربية الشرقية والغربية ، تربية الأزهر أو دار العلوم

أو الجامعة أو التربية الإنجليزية أو الفرنسية وإذا سعدنا في التاريخ رأينا نحو ذلك فقد قيل لابن الرومي^(١) لم لاتشبه كنتشبهات ابن المعتز؟ فقال مثل ماذا؟ فقيل كقوله في الهلال :

أنظر إليه كزورقٍ من قضةٍ قد أثقلته حمولةٌ من عنبرٍ
فقال ثم ماذا؟ فقيل له قوله في الأزربون . وهو زهر أصفر في وسطه
خل أسود :

كان آذريو نها غيب سماءٍ هاميةٍ
مدهن من ذهبٍ فيها بقايا غاليةٍ
فصاح ابن الرومي : واغواثاء ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما
يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أيّ أصف ، ولكن انظر إذا وصفت
أين يقع قولي من الناس ، فهل لأحد مثل قولي قط في قوس الغمام : —
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارقاً من الجود كناً والحواشي على الأرض
يطرّزها قوس السحاب بأخضرٍ على أحمرٍ في أصفرٍ إثر مبيضٍ
كأذبال خودٍ أقبلت في غلائلٍ مصبغةٍ ، والبعض أقصر من بعضٍ
وكان زهير بن أبي سلمى متصلاً ببشامة بن النضير فأثر ذلك في شعره
الحكم المتزن ، والأمر بالمثل بين الأعشى والمسيب بن علس . والشريف الرضي
ومبيار الديلمي .

وإذا وقفنا عند النقد بالذات وجدنا في القرن الثالث الهجري صنوفاً من
النقاد أربعة لكل صنف ذهنيته أو ذوقه الخاص في نقد الأدب وقدره : ذهنية
النفوسين يمثلها أبو سعيد السكري رواية البصريين في عهده وأبو العباس ثعلب

(١) اختلاف الجنس هنا لا يمنع الاستشهاد بهذه الفصحة إذ كانت مثلاً واضحاً لأنثر
البيئة الخاصة .

أحد اللغويين والنحاة الكوفيين ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد البصري وعنايتهم كانت ببناء الألفاظ والتراكيب وتحديد معناها والاتجاه نحو القدماء في فنون الأدب والبيان ، وذهنية الأدباء الذين عنوا بالأدب الحديث مع القديم ، حفلوا بالأول وتبينوا عناصره وخواصه ، يمثلهم عبد الله بن المعتز ، وكان هؤلاء يفضلون الجديد المعتدل وعدم الإسراف في الصنعة والبديع والإحالة ، والثالثة ذهنية أو ذوق الذين أخذوا بنصيب معتدل من المعارف الأجنبية كابن قتيبة العالم الأديب والباحظ الكاتب الفذ ، وذوق هذه الطائفة يميل إلى التنظيم والتقسيم ويتأثر بالعالم ويعنى ببيان الصلة بين الشعر والشاعر ، والرابعة ذهنية هؤلاء الذين ظفروا بأكبر نصيب من الثقافة اليونانية كقدامة بن جعفر الذي حاول أن يفرض على الأدب العربي مسائل الفلسفة والمنطق وقيسه بمقياس علمي دقيق غافلاً عن قيمة الشخصية ومكانة الذوق السليم إلا قليلاً كما يحاول ذلك بعض المعاصرين^(١) .

(٥) الشخصية الفردية أو المزاج الخاص — وهذا العامل أخص المؤثرات في الذوق وألصقها بالناقد وكثيراً ما ينتهى إليه الرأي في باب النقد الأدبي ، ويرى مكدوجل : أن المزاج هو مجموعة الآثار التي تحدثها في الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكيميائية التي تحدث باستمرار في أنسجة الجسم ، ويقول شاند : إن المزاج هو الشخصية الفطرية الطبيعية أو هو ذلك العنصر من عناصر الحياة العقلية الذي يختلف باختلاف الأفراد من الناحية الوجدانية وكذلك من الناحية النزوعية على ما يظهر^(٢) ويكاد يكون من المتفق عليه أن للأمزجة آثاراً بينة في الشخصية وأنها تختلف باختلاف الأفراد وأنها تحدد وجهة نظر الفرد نحو

(١) طه ابراهيم تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص ١١٥ .

(٢) في علم النفس ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ .

بيئته وتؤثر في سلوكه إلى حد بعيد جداً . ويعنينا هنا ما يلاحظ من تفاؤل صاحب المزاج الدموي أو تشاؤم السوداوى وما لنحو ذلك من أثر في الذوق الأدبي إنشاءً ونقدًا ، فهذا ابن الرومى كان متطيراً حاد المزاج مضطرب به ضعيف الأعصاب مريض الطبع ، أنشده بعضهم :

ولما رأيتُ الدهرَ يُؤذِنُ صرْفُهُ بتفريقِ ما بيني وبينَ الحبايبِ
 روجعتُ إلى نفسى فوطنتُها على ركوبِ جميلِ الصبرِ عندِ النوائبِ
 ومنِ صَحْبِ الدنيا على جورِ حكمها فأيامُهُ محفوفةٌ بالمصائبِ
 فخذُ خِلْسَةً من كلِّ يومٍ تعيشُهُ وكن حذراً من كائناتِ العواقبِ
 ودع عنك ذكرَ القالِ والزجرِ واطرح تطيُّرَ جارٍ أو تفاؤلاً صاحبِ
 فبقى ابن الرومى مبهوتاً ينظرُ إليه ثم تبين الحاضرون أنه شغل قلبه بحفظ هذه الأبيات . وطبعى أن يعنى صاحب هذا المزاج بمثل هذه الأبيات ، وابن الرومى هو القائل :

لما تؤذِنُ الدنيا به من صُروفها يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةً يولدُ
 وإلاً فما يبكيه منها وإنها لأرحبُ مما كان فيه وأرغدُ
 إذا أبصرَ الدنيا استهلَّ كأنه بما سوفَ يلقى من أذاها مُهدَّدُ
 فقد خلع على الدنيا من مزاجه الحزين المتشائم وأبكى الطفل حين الولادة من كوارثها المرقوبة ، ومثله في ذلك المعرى ، في حين أن شاعراً كالبحتري يخلع على الربيع بهجة من نفسه فتشيع فيه الحياة والجمال :

أتاكُ الربيعُ الطلقُ يَخْتالُ ضاحكاً من الحُسْنِ حتَّى كاد أن يتكلَّمَا
 فنَّ شجرٍ ردَّ الربيعُ لباسه عليه كما نشرتَ شيئاً مُنمَّما
 ورقٌ نسيمُ الريحِ حتى حسبتُهُ يحىءُ بأنفاسِ الأحيَّةِ نُعْمَا
 ويمكن أن يدخل في ذلك هذه الحالات النفسية التى تستأثر ببعض

النفوس فتحملها على إنشاء أو استحسان فن خاص من الشعر أو النثر ،
فالعاشق يؤثر النسب والقوى يفضل الحماسة ، والزاهد يحب أبا العتاهية ، والصوفي
ابن الفارض ، والحكيم يفضل المتنبي والفيلسوف يعكف على المعري ، وبالجملة
من غلبت عليه نزعة عقلية آثار الأدب الثقافي ، ومن قوى وجدانه مال
إلى أدب القوة .

— ٤ —

وإذا كان الذوق الأدبي من المرونة بحيث يقبل التأثير والتهديب ، فهل
يمكن تكوين الذوق السليم ، وكيف يكون ذلك ؟

قدمنا أن الذوق في أصله هبة طبيعية لكن رقية وتهذيبه إنما يكون
بالتربية الصحيحة ، ونقول هنا : إن تكوين الذوق بمعنى خلقه في نفوس لم
تظفر به شيء عسير ولا بد لتكوين الذوق وتهذيبه من وجود أساس بالقوة في
النفوس يمكن تحويله إلى فعل ويقول لاسل أبركرومبي : نستطيع إذن ، أن
نقول : إن دولة الأدب تحتلها ملكات ثلاثة : الأولى ملكة الانتاج (أو
الانشاء) والثانية ملكة القذوق والثالثة ملكة النقد . وأهم ما يمتاز به ملكة
النقد أنها يمكن أن أن تكسب — فمع أنه من الجائز أن يكون النقد أحياناً
غريزياً — فالناقد لمادة يكون مدركاً للخطأ التي يتبعها في نقده ، وهذه الخطأ
تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لأن ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص
ومن الممكن دراستها وتطبيقها في دقة وعناية ، ولكن ليس هناك قواعد ترشدنا
إلى كيفية ابتكار الأدب ولا إلى كيفية الاستمتاع به ، ولهذا لم يكن من
وظيفة للنقد أن يشرح الحالة الفكرية التي تبعث على الابتكار الأدبي ،
ولا الحالة الفكرية التي تساعد على الاستمتاع بالأدب ، والنقد عاجزاً تماماً
عن إيجاد هاتين الملكتين عند الناس إذا لم يكن لهما وجود من قبل ، فهو

إذن ، يفترض وجودها افتراضاً ، أما الذين لا يقدرّون على ابتكار الأدب ولا على الاستمتاع به فانهم لن يجدوا للنقد معنى ولن يتذوقوا له طعماً ، فالنقد إذاً ، يفترض أولاً أن الأدب موجود ثم يعضى في البحث عن طبيعته وفي شرحها وقدرها ، والخلاصة أنه يهديننا إلى تكوين رأى صحيح عنها ^(١) .

فاذا كانت ملكتنا الانشاء والتذوق طبيعتين وإذا كان النقد عاجزاً تماماً عن إيجادهما فإن معنى ذلك أن الذوق الأدبي طبعى في أصله ، وأن النقد يتكسب عليه مع قوانينه المنطقية الخاصة ، لذلك كانت الدراسة الأدبية عند غير الموهوبين قليلة الفائدة في حين أنها تبلغ بسوام درجة النبوغ . ويقول ابن الأثير : « اعلم أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم . . . فان الدربة والادمان أجدى عليك نفعاً وأهدى بصراً وسمعاً وهما يريانك تخبر عياناً ويجعلان عسرك من القول إمكاناً وكل جارحة منك قلباً ولساناً نخذ من هذا الكتاب ما أعطاك واستنبط بادمانك ما أخطأك وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفاً ووضعته في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً فان حمل النضال غير مباشرة النضال » ^(٢) .

والكلام إذاً ، إنما يقف عند من وهبوا مقداراً صالحاً من جمال الذوق وسلامة الطبع فان التربية الأدبية تنفعهم من ناحيتين . الأولى — ترقية الذوق وطبعه أجهل طبع وأقواء ، والثانية — قدرتهم على تحليل ما فى الأدب من صفات البراعة والحسن أو عكس ذلك . وأما من سوام فيعمدون إلى الدراسات النظرية أو البلاغية لعلها ترشدكم بعض الشيء ^(٣) ولكن كيف نكون هذا الذوق السليم ؟ .

(١) قواعد النقد الأدبي ، ترجمة محمد عوس ، ص ٤ .

(٢) المثل السائر ، ص ٣ .

(٣) راجع سر الفصاحة ، ص ٨٨ .

يكون ذلك بوسيلتين : سلبية وإيجابية . والأولى تكون بتجنب الأدب الرديء ، ومجانبة المشاهد الفنية السقيمة ، والبعد عن النوادي والأشخاص والبيئات حيث تدور الأحاديث البذيئة وتبدو الخلال الوضيعة لئلا يجرج الذوق وتناله المدوى الخبيثة . والثانية يراد بها العوامل التي يلجأ إليها الانسان لتنمية ذوقه وتصفيته ليكون صادق الادراك دقيق الحس شديد الحكم . وهذه الوسيلة الثانية درجتان : عامة وخاصة ، فالعامة تكون بحسن الاتصال بالفنون الرفيعة فهما وتذوقا ، وبالمشاهد الرائعة طبيعية أو صناعية ، وبالمرانة على حسن الهندام ، والنظام ، والفضائل الخلقية والاجتماعية ، والعناية بالثقافة الصحيحة ، فلذلك كله يبعث في النفس الجمال ويعد الذوق لقبول الأدب الرفيع وتذوقه ومحاكاته وللنفور من كل قبيح مرذول .

وأما الدرجة الخاصة فهي الاتصال المباشر أو الامتزاج التام بخير ما في الأدب شعر ونثر ، وقراءة خالقة يتوافر فيها فهم الأدب ، وتحليله إلى عناصره ، وتبين الصلات بينها ، وما في كل منها من أسباب الصواب والقوة والجمال ، وتفهم روح الأديب وشخصيته وعقله ليفيد القارئ من ذلك نفساً مهذبة تفيض على نفسه جمالاً وعلى ذوقه صفاء ، ويحسن أن يعرف شيئاً عن حياة الأديب الذي يقرؤه وعن بيئته ليستطيع التفاهم معه والدخول إلى قلبه سريعاً ، وهذا معناه أن الذوق الأدبي يربي ويرقى بالنقد الأدبي ذاته ، وأى غرابة في هذا ؟ أليس كل منهما عوناً للآخر يقول الأستاذ أحمد ضيف : « يتكون الذوق السليم بالقراءة والدرس ويكتسب شيئاً من اللين والمرونة وقبول الجديد لأن الذوق خلق من الأخلاق القابلة للتهديب والتنقيح بالقراءة والفهم والدرس بحيث يكون ذوقاً مبنياً على التجربة مما قرأ الانسان وفهم من العلوم والفنون ، فالذوق الصحيح ينضج ويتربى بالنقد ، والنقد يتهذب بالذوق لأنه معين ومساعد على الفهم وتفضيل الشيء على الشيء

فلو أن إنسانا خلا من ذلك كان حب الاستطلاع لديه ناقصاً لأنه إن لم يكن في نفسه ذوق ثابت لنوع من الأنواع مبنى على التجربة ولم توجد في نفسه ملكة التفضيل والتفرقة بين الأشياء كان سواء عليه أقرأ هذا أم هذا ، وخفى عليه كثير من الميزات ، وكانت الفائدة من القراء لديه أقل مما لو كان له ميل خاص وربما خرج من الكتاب الذى يقرأ بدون فائدة ولا أثر .^(١) ونحو ذلك ما قاله ابن خلدون عن ملكة الذوق البلاغى : « فإذا اتصلت مقاماته — أى المتكلم بلسان العرب — بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحرف فيه غير منحنى البلاغة التى للعرب ، وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحنى محج ونبأ عنه سمعه بأذى فكر بل وبغير فكر إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة فإن الملكات إذا استقرت ورسخت فى محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل . ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة فى كتب فليس من تحصيل الملكة فى شيء إنما حصل أحكامها كما عرفت ، وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتبار والتكرار لكلام العرب »^(٢) وعلماء النفس يشيرون بتربية الأذواق من نواح ثلاثة : الوجدان والإدراك والنزوع^(٣) وذلك بمباشرة الفنون الجميلة ، والآثار الأدبية الممتازة لتكوين مقاييس صادقة للجمال والفضائل ثم بمعرفة أسباب الجمال وتحليله إلى عناصر ونقده نقداً سليماً ، وأخيراً بالمرانة على تقليد الجميل لأن من يحسن صوغ الشعر يستطيع أن يندوق ما فى شعر غيره من رقة وبراعة وعلى أن ينقده ويتبين ما فيه من نقص وكمال . وأما عن الكتب التى تقرأ فمن الخير الاستماع إلى مشورة الثقات من رجال النقد الأدبى فإنهم أوثق الناس صلة بالأدب ، وأعرفهم بخبره وأبعده أثراً فى تقويم

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ٩٣ .

(٢) المقدمة ، ص ٦٤٢ وراجع سر الفصاحة ، ص ٨٩ .

(٣) حامد عبد القادر : فى علم النفس ، ج ٣ ، ص ٣٥٤ .

الذوق الأدبي . وعندى أنه لابد من الرجوع دائماً إلى الأدب القديم والتملؤ بنصوصه الجليلة الجزلة فإن الحديث وحده لا يكفي وربما هبط بمستوى الأداء وهذا ما نعيبه على الناشئين بيننا الآن في اعتمادهم على الصحف والمجلات المصرية حتى ضعف أسلوبهم ومال الابتذال .

وليحذر المتأدبون اطمئنانهم إلى هذه الدراسات النظرية وإلى قواعد النحو والبيان والنقد فتلك مسائل نظرية تفيد العقل معرفة ، ولا تكسب الذوق مراة وابتكاراً ، وكثير من الأقدمين والمحدثين كانوا علماء باللغة والنحو والبلاغة ولكن لعدم المراة الفنية كانوا يعجزون عن تحبير رسالة أو تصوير ما في نفوسهم من أفكار . شكا ذلك في نفسه أبو العباس المبرد وذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة فيجعل المعنى الذى قصده نصب عينيه ثم لا يجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولا بلسان ، فى حين أن المكتاب لظرفهم بهذه الناحية التطبيقية « أرقى الناس فى الشعر طبعاً وأملحهم تصنيفاً وأحلام أفاضوا وأظفهم معانى وأقدرهم على التصرف وأبعدهم من التكلف » (١) .

— ٥ —

وأخيراً ما قيمة هذا الذوق الأدبي ؟ وماذا يفيد ؟

واقف تبين لنا ما مضى أن الذوق السليم عدة الناقد ووسيلته الأولى ، فإليه يرجع إدراك جمال الأدب ، والشعور بما فيه من نقص ، وإليه نلجأ فى تحليل ذلك وتفسيره ، وبه نستعين فى اقتراح أحسن الوسائل لتحقيق الخواص الأدبية المؤثرة والذوق ينفع فى إنشاء الأدب أيضاً فإن ما ينشئه السكايب أو الشاعر ثمرة ذوقه الأدبي وصورته الدقيقة ، كذلك اختيار النصوص الأدبية متأثر بالذوق خاضع

له ، وذو الذوق الجميل يختار الأدب الجميل . ويقول ابن خلدون : « فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى جودة النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ، ولورام صاحب هذه المملكة جيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقة عليه لسانه لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخه عنده ، وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم الكلام أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ؛ فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء ، وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم » ^(١) ومن المقرر في علم النفس أن صاحب الذوق السديد يقدر أولاً على قدر الآثار الفنية والأدبية وإدراك ما في هذا العالم من جمال وتناسب وانسجام وثانياً على الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي والصناعي والشعور باللذة والسرور عند إدراكه واجتلائه وثالثاً على محاكاة ذلك الجمال الخارجى في الأعمال والأقوال والأفكار ، فالذوق السليم منبع السرور واللذة ويعد من الدافع القوية إلى تهذيب الأفكار والسمو بها وتنسيق الألفاظ وجعلها أخاذة بالألباب حسنة الوقع على النفس بريئة من الاضطراب ، على أنه بعد ذلك ذو أثر خطير في الحياة الخلقية والفكرية والاجتماعية وبعث التفاؤل والألفة وتحقيق السعادة في الحياة ^(٢) .

هذا الذوق الأدبي الذي أجهلنا القول في عناصره وعوامله المتباينة يبلغ به الأمر إلى أن يصير ملكة تسبق العقل في الأحكام ، وتؤدي عملها النقدي بطريقة تكاد تكون عادية أو آلية ، فتصدر عنه الملاحظات والفصل في المسائل الفنية دون أن يعرف صاحبها لشيء من ذلك علة ووجهاً . إنما هي صدى لما بعثته الأشياء

(١) المقدمة ، ص ٦٤٣ . (٢) في علم النفس ، ج ٣ ص ٣٤٧ ، ٣٥٢ .

فى نفس الناقد من تأثير ، ويظهر أن علة ذلك ما تنتهى إليه نفسية الناقد من تعقيد لم يشرح أو من عبقرية فى هذه الناحية سمّت على القواعد الوضعية والقوانين العلمية .

وقد يكون من الخير أن نورد عقب هذا الكلام ما قاله ابن سلام فى فاتحة كتابه طبقات الشعراء : « ولشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما يتقفه العين ، ومنها ما يتقفه الأذن ، ومنها ما يتقفه اليد ، ومنها ما يتقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا لمس ولا طراز ولا حس ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائنها وستوقها ومفرغها^(١) ومنه البصر بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده وتشابه لونه ومسه وذرعه حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذى خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون جيدة الشطب^(٢) نقية الشعر حسنة العين والأنف ، جيدة النهود ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر^(٣) فتكون بهذه الصفة بمائة دينار وبمائتى دينار وتكون أخرى بألف وأكثر ، لا يحد واصفها مزيداً على هذه الصفة » .

(١) الجهبذة الناقد الخير ، الطراز علم الثوب . البهرج درهم ردىء الفضة . الزائف . المردود لقش فيه . الستوق الدرهم الزائف . المفرغ الحالى أو من قولهم حلقة مفرغة أى مصمته .
(٢) الشطب الحسن الخلق ، والشطبة الجارية الطويلة الحسنة .
(٣) الشعر الورد : الطويل المسترسل .

الفصل الثالث

فى النقد والناقد

- ١ -

إذا كان النقد ضرورة من ضرورات الحياة لاستغنى عنها ما دامت تتطلب التقدم ومحاولة البراءة من النقص والتخلف ، فمن الطبيعى أن يتناول النقد جميع مقوماتها العلمية والفنية والاجتماعية والسياسية لعله يصلح ما فسد ، ويعين على الترقى ، ويهذى الباحثين والعاملين إلى أهذى السبل وأسمى الغايات . لهذا اختلف النقد أو تعدد بتعدد نواحي الحياة ، فمنه النقد السياسى الذى يتخذ مقاييسه من أصول الحكم والقوانين الدولية ، والبراعة التى تفيد الدولة وتدعم سلطانها على الرعية وبين الدول جميعاً . ومنه النقد الاجتماعى الذى يعتمد فى كيانه على تقاليد الأمة ، وما ييسر عليها حياتها ، ويحمى أفرادها وأسرهار وأخلاقها من الفساد والتدهور وعلى جميع ما يرضى الكافة ويجعل الأفراد مهذبين صالحين لمسيرة التقدم والنجاح . وهناك النقد العلمى المتصل بالطبيعة والكيمياء والرياضيات ، ونحوها وهو خاضع لهذه المناهج النظرية والتطبيقية التى وضعت لسكل علم وإن كانت كلها مشتركة فى صحة المقدمات وسلامة التجارب ودقة الاستنباط والتجرد من الأشياء الذاتية إذ كانت المسائل العلمية ظاهرة عقلية موضوعية تتناول الحياة كما هى فى الواقع دون أن يكون للذوق أو المزاج فيها نصيب .

وهناك النقد الفنى ، وهو كذلك خاضع لأصول عامة تصلح للفنون الرفيعة

كلها من رسم وتصوير وأدب وموسيقا ونقش ، من ذلك صدق التعبير ، وقوة التأثير ، وجمال الخيال ومراعاة التناسب . ومع ذلك فلكل فن منها مقياسه النقدية الخاصة تبعاً لطبيعته ، ووسيلته في الأداء ، وهي متأثرة حتماً بالذاتية أى بهذا الذوق الفنى لكل ناقد . ولستأ نريد هنا التورط في أصول النقد العلمى ولا الفنى وإنما أشيرنا إليها لنفرغ منها إلى النقد الأدبى خاصة إذ كان نوعاً من أنواع النقد ، يكون فنياً أو مزيجاً من العلم والفن كما يمر بتحقيق القول في ذلك . والنقد الأدبى خاص بالأدب . وإذا كنا نفهمه بالمعنى العام أى تفسير الأدب وإيضاحه فنستطيع أن نعد من أنواعه ما يلى :

أولاً — النقد التاريخى الذى يشرح الصلة بين الأدب والتاريخ فيتخذ من حوادث التاريخ السياسى والاجتماعى وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره وخواصه وقد تقدم الكلام في ذلك فلا نعيده هنا ^(١) .

ثانياً — النقد الشخصى وهو الذى يتخذ من حياة الأديب ومسيرته وسيلة لفهم آثاره وفنونه وخواصه الغالبة عليه ، فإن الأدب صادر عنه مباشرة ليسهل بذلك شرحه وتعليل أوصافه ، وهذا أيضاً قد سبق ذكره ^(٢) .

ثالثاً — النقد الفنى ، وقد قلنا من قبل إنه أخص الأنواع وأولها بمن يريد فهم طبيعيات الأدب وبيان عناصره ، وأسباب جماله وقوته ، ورسم السبيل الصالحة للقراءة والإنشاء وهو عندى أحق الأسماء بهذه التسمية ، فهو النقد حقاً وما سواه من الطريقة التاريخية أو الشخصية تفسير ، وإن كان — بلا شك — يعين على صحة النقد الفنى وعلى سلامة أحكامه من الغموض والفضلال .

وإذا رحنا نستقصى مظاهر النقد الأدبى في تاريخ الأدب العربى وجدناها

(١) و (٢) راجع الفصل لثامن من الباب الأول من هذا الكتاب ، و (في الأدب الجامعى) ص ٣٣ الطبعة الثالثة .

كثيرة متنوعة فنقد لفظي ، وآخر معنوي ، وثالث موضوعي ، ومن اللفظي ماهو لغوي أو نحوي أو عروضي أو بلاغي ، ومن المعنوي ما يتصل بابتكار المعاني أو تعمقها أو توليدها أو أخذها ثم ما يتصل بالأخيلة وطرق تأليفها لتصوير العاطفة . ثم العاطفة الصادقة والمصطنعة . ومن الموضوعي ما يليق بكل مقام من المقال أو الفن الأدبي الخاص حتى غلوا وحاولوا أن يقصروا الشعر على فنون دون النثر . ويمكنك الرجوع إلى ذلك كله في الموشح المرزباني ، والصناعتين للعسكري والبيان والتبيين للجاحظ ، والموازنة للآمدي ، والوساطة للجرجاني ودلائل الأعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر ، وإن تتسع هذه الصفحات لايراد الأمثلة لذلك فارجع إليها في مظانها المذكورة ، على أن كثيرا منها يمر بك في تضاعيف هذه الفصول . وستكون عنايتنا هنا موجبة في الغالب إلى الناحية البيانية التي تتجافى عن الأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية ، فلذلك علوم مقررة يسهل استخدامها في تعرف هذه الأخطاء اللفظية والجزئية .

— ٢ —

وفي عصرنا الحديث نشهد درجتين للنقد الأدبي أو نوعين من أنواعه : إحداهما الدرجة السريعة وتتناول الآثار الأدبية — أو الفنية — التي تقدم كل يوم إلى الصحف والمجلات ، ونقد هذه الدرجة نوع من الاعلان أو الوصف يعتمد على ملاحظات سريعة تعين القارئ على معرفة ما يصلح له من الكتب التي تصدرها المطبعة تباعاً ، ومع ذلك فيجب ألا يخلو هذا النقد من الجد وصحة الحكم والانصاف وترك المجاملة لئلا يضل القراء ويذهب بمكانة الصحفي الأديب .

والثانية أسمى من الأولى وأبقى إذا كانت عاملا من عوامل الرقي ونشر الثقافة العامة بين القراء . وتظهر في المجلات المحترمة أو الكتب وتعتمد على

الدراسة العميقة والخيال الخصب ، والتفكير الواضح السديد ، والموازنة الشاملة ، وهي تنتهى فى الغالب بعرض خلاصة كافية للأثار المنقودة أو (بأكمال) ما ينقصها ، أو بفتح آفاق جديدة للبحث متصلة بموضوع الكتاب^(١) ويمكن هنا إجمال الخطا التى تندرج فيها هذه الطريقة حتى تصل غايتها إلى أن يفصلها فى حينها إن شاء الله .

فعلى الناقد ألا يهمل هذه الجزئيات اللغوية والنحوية التى تعين على فهم عقل الأديب وتاريخ أفكاره أثناء كتابه أو مقاله أو قصيدته أو قصته وما انتهت إليه من نتائج وآراء ومذاهب . وذلك يقتضيه أولاً تفهم المعانى الحقيقية التى تدل عليها العبارات بعناصرها الأصلية التى تسمى عمدة كالابتداء والخير والفعل والفاعل . أو بعناصرها الثانوية التى تسمى فضله كالحال والمفاعيل وبعض المتعلقات .

وثانياً - فهم المعانى المجازية أو التضمنية والالتزامية التى تؤدبها العبارة بطريق الاستعارة والكناية أو تشير إليها إذا كانت موجزة تكتفى بالإشارة والتلميح وثالثاً - قيمة كل جملة فى إيضاح المعانى ، إذ كان بعض الجمل أساسياً يدل على أصل المعنى والبعض إيضاح أو تكرار وهذه الأخطاء - على جفائها - تعد أساساً لازماً للدرجة السامية من درجات النقد الأدبى . على أن الناقد ما دام يصل بين هذه الملاحظات النحوية وبين المعانى والأفكار يشعر بخفة بحثه ومتعته ، فإذا انتهى من ذلك واجه عمله الحقيقى الخطير الذى يتجلى فى تعرف الأثر المنقود : كيف ظهر بخواصه اللفظية والمعنوية ، وعلى أى شىء يدل مما له صالة بعقل كاتبه وعواطفه وأخيلته ومزاجه ومواهبه وبيئته ومعارفه ، فإذا بنانا نحميا مع

الأديب ونرى بعينه ونسمع بأذنه ، ونخضع أنفسنا لميوله ونظرياته وروحه ، وننتقل من فهمه إلى فهم عصره وبيئته كلها^(١) ، ثم نحسن الحكم والتقدير .

— ٣ —

والنقد الأدبي أثر الناقد ووظيفته ، وإذا كنا قد حاولنا تعريف النقد الأدبي ومقدماته فيما مضى فمن الحق علينا ذكر الناقد منشىء هذا النقد ، ومصدره المباشر ، وطابعه بطابعه . والباحثون يذكرون للناقد شروطاً كثيرة تخيل للقارىء أنها لا تحصى أو لا تضبط وقد ينفرد كل بذكر طائفة منها محاولاً أن يلائم بينها وبين خطته في التأليف^(٢) وربما كان من الحق أن نرد هذه الصفات إلى ثلاثة هي من ناحية ثانية الأسس العلمية المباشرة لفن النقد الأدبي^(٣) .

(١) الذكاء Intelligence أو الخبرة ، وذلك أن يكون الناقد ذا معرفة واسعة بالفن الأدبي الذى ينقده ثم بما يلابسه من فنون وموضوعات أخرى ، لأن النقد الأدبي لا تتضح قضاياه ولا تستقيم أحكامه حتى يعتمد على مقاييسه الخاصة ثم يستعين - بالموازنة - بمقاييس الفنون الأخرى . وهذا أدعى إلى الفهم وحسن التعليل ، وقوة الإيضاح ، وأخيراً ، إلى صحة الحكم والتقدير . وقد مر بك أن للعلوم مناهجها الدراسية والنقدية والفنون مقاييسها أيضاً ، فإذا تقدمنا إلى الأدب وحده رأينا له صفاته العامة من صحة الأفكار ، وصدق العواطف ، وجمال التعبير ثم رأينا للشعر صفته الرئيسية التى تتلخص فى الملائمة

(١) نفس المرجع ، ص ٥٧٩ .

(٢) راجع فى ذلك مقدمة أحمد ضيف ص ٩ والموازنة لزكى مبارك ص ٢ — ٨ . والمثل

للحمصى ، ج ١ ، ص ١٣٤ و ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٣) راجع أصول البلاغة تأليف Genung ، ص ٥٩٣ ، وأصول النقد الأدبي تأليف

Richards ص ١١٤ .

بين لغته الموسيقية ومعانيه القوية ليحقق التأثير المراد ، ثم الخطابة التي تقوم على قوتى الاقتناع والتأثير ، وتقتضى عبارات متنوعة تلائم غايتها ، والمقالة التي تعنى بالاقناع والإفادة قبل كل شيء . وهكذا لكل فن أدبي مقياسه الخاص الذي يجب أن يلم به الناقد حتى لا يخلط بين الفنون فيفضل في التقدير . ومن نواحى هذه الخبرة أن يكون الناقد مطلعاً على عصر الأديب ومكانه وسيرته ، وقد بينا أثر ذلك كله في الأدب ، ولا مناص من تعرف ذلك لفهم الأدب ، وتعليق ظواهره ، وسلامة النقد من الظلم والاعتساف . . . لأننا بذلك نكون قد فهمنا الأثر الأدبي كما هو ، وكما وجد ، يعرض نفسه على الناقد واضح السيرة ، منسق المفدمات والنتائج . ويقول مانزوني Manzoni : « إن كل مؤلف يبسط لمن يريد أن يفصح المبادئ اللازمة للحكم عليه ، وهذه المبادئ يمكن استنباطها بأن نسأل أسئلة ثلاثة : ما غرض المؤلف الذي يرمى عليه ؟ وهل الغرض الذي يرمى إليه المؤلف غرض معقول ؟ وهل استطاع أن يبلغ هذا الغرض ؟ وبعبارة أخرى : اكتشف الغرض ، واحكم على قيمته ، ثم انقدصنعة المؤلف ^(١) وخلاصة هذا الشرط أن يتوافر للناقد ذلك ، حاد يدرك به أسرار الأدب وصفاته المختلفة ، ثم معرفة عريضة بحياة الأدب والأديب ، وبهذا يكون قد أعد نفسه للدخول في باب النقد ، واتخذ الأهبة التي تجعله حكماً عادلاً للفصل في الشؤون الأدبية ، والتمييز بين الأدباء .

(٢) المشاركة العاطفية Sympathy ، وهى الخطوة الثانية بعد ما ذكر قبلاً

من إعداد النفس وتزويدها بالوسائل اللازمة لهذا الفن الأخير والمراد بالمشاركة العاطفية أن يكون الناقد ذا قدرة على النفاذ إلى عقول الأدباء ، ومشاعرهم ؛ يحل محلهم ، ويأخذ مواقفهم أمام التجارب التي بلوها ، والفنون التي عالجوها ،

(١) قواعد النقد الأدبي ، تأليف لاسل آبن كرومي . ترجمة محمد عوض ، ص ١٨١ .

ليرى بأعينهم ، ويسمع بأذانهم ، ولعله يدرك الأشياء كما أدركوها متأثرة بوجهة نظرهم وطبيعة أمزجتهم . وهو بذلك يحاول نسيان نفسه ليحيا فترة في ظل هؤلاء الأدباء ، وفي نفوسهم أو يذتتهم النفسية مندججاً فيهم ، كالغواص يهبط إلى أعماق البحار وراء طلبته دراساً أو مستخرجاً جواهرها الخبوءة . ولعل الناقد يفعل أكثر من ذلك فيسوم نفسه الكتابة أو الشعر أو القصص ممتحناً مواهبه ، سائلاً نفسه : ماذا عسى أن تقول إذا حملت على القول ، ثم كيف حول هؤلاء الأدباء أفكارهم وعواظهم إلى هذه الصورة الأدبية التي نرتلها شعراً منظوماً أو تقرأها ثوراً أو مشوياً . وبذلك نكون قد عاشرنا النصوص الأدبية من نشأتها الأولى إلى أن استوت ناضجة وعرفنا ما ألم بها فآذاها أو قومها فكانت كما نراها حقاً أو باطلاً أو بين الحق والباطل وهل يستطيع الناقد — إذا لم يعاشر الفنون الأدبية — أن يقول : إن هذه القضية العقلية أصابها اضطراب في البرهان أو غموض في الإدراك ، أو أن هذه العاطفة بدأت جياشة قوية ، ثم فترت أو أن ذلك أثر في التعبير فكان معقداً أو فاتراً سقيماً ؟

وإذا كنا نطالب الناقد أن يكون الأديب أمام ما يتناول من تفكير وتصوير وتعبير فانا نطالبه أن ينسى ما استطاع كل ما يحول دون اتحاده بالأدباء : ينسى ميوله الخاصة وذوقه ينسى صلاته الأخرى — أن وجدت — بالشعراء والكتاب ينسى ما قد يكون في نفسه من قيم وأفكار عنهم لئلا تسبق فتؤثر في تصوير آثارهم وقدرها ، ينسى عصبيته الجنسية أو القومية أو الحزبية ، ينسى كل ذلك وغيره من الأهواء أو العوامل التي تفسد عليه فنه ، وتشوه حقائق النصوص أمامه وتضع في عمله جرثومة علاه وفنائه^(١) . وقد يما كان التعصب

(١) راجع الموازنة لركى مبارك ، ص ١ وما وليها .

للشعر القديم آفة النقاد وداعية العجب أو السخرية فقد روى عن اسحاق الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمعي :

هل إلى نظرة إليك سبيلُ فيبيلُ الصدى ويُسْفَى الغليلُ
إن ما قل منك يكثر عندي وكثيرُ ممن "تحب القليلُ"
نقال : هذا والله الديباج المُنسرواني ! ولمن تشدني ؟ فقلت إنهما ليلتهما ،
فقال : لاجرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر . ومهما يكن من قيمة هذا الشعر
ومهما يكن من المبالغة في حكم الأصمعي الأول فلا شك أن العصبية على معاصريه
كانت من صفاته . والقد لقي ابن منذر بمكة حمادا الأرقط فأنشده قصيدته :

كُلُّ حَيٍّ لاقى الحمام فردٍ مالمحي مؤملٍ من خلودٍ
ثم قاله : أقرى أهل عبدة السلام ، وقل له : يقول لك ابن منذر : اتق الله
واحكم بين شعري وشعر عدي بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهلي ، وهذا إسلامي ،
وذاك قديم وهذا محدث ، فتحكم بين المعريين ولكن احكم بين الشعرين ودع
العصبية . وهذا كان نتيجة لهذه الخصومة بين القدماء والمحدثين التي اشتدت
في القرن الثاني للهجرة ، وقد أشار إلى ذلك ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر
والشعراء حيث يقول : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له ،
سبيل من قلد أو استحسّن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين
الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل
على الفريقين وأعطيت كلاهما حقه ووفرت عليه حظه فاني رأيت من علمائنا من
يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ويرذل الشعر الرصين
ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله ولم يقصر الله الشعر والعلم
والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً
مقسوماً بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره وكل شريفاً خارجياً

في أوله فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول : لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا بعد العهد منهم وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخزيمي والعتابي والحسن ابن هاني ، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأنشينا عليه به ولم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه ١٥١ هـ .

وقد يدلنا على الذكاء وتعرف نفسية الأديب ، وتاريخ النص الأدبي ما قال الرشيد للفضل الضبي : اذكر لي بيتاً يحتاج إلى مقارعة الأذهان في إخراج خبيئه ثم دعني وإياه ، فقال : أتعرف بيتاً أوله أعرابي في شماتة هابٍ من نومته كأنما ورد على ركب جرى في أجفانهم الوسن فظل يستنفرهم بعنجية البدو وتعجرف الشدو ، وآخره مدني رقيق غذى بماء العميق ؟ قال : لا أعرفه ، قال هو بيت جميل :

ألا أيها الركبُ النيامُ ألا هبوا

ثم أدركته رقة الشوق فقال :

أسائلكم ، هل يقتل الرجلَ الحبُّ

فقال له : أفتعرف أنت بيتاً أوله أكرم بن صيفي في أصالة الرأي ونبيل العظة وآخره بقراط لمعرفته بالداء والدواء ؟ قال قد هوّلت على فليت شعري بأي مهر تفتزع عروس هذا الخدر ؟ قال : بإنصافك وإنصانتك ، وهو بيت الحسن ابن هاني . (أبي نواس) :

دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءٌ ودأوني بالتي كانت هي الداء^(١)

ومن مظاهر الذكاء الحاد والملاحظة الدقيقة ، ما روى أبو تمام قال : حدثني كرامة قال : قدم رجل من ولد معدان بن عبيد المعنى من عند البرامكة ، فقلنا له : كيف تركتهم ؟ فقال : تركتهم وقد أنست بهم النعمة حتى كأنها بعضهم ! قال

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ٦ ، طبعة مصر .

أبو تمام : قال كرامة : فحدثت بهذا ثعلبه بن الضحال العاملى ، فقال : لقد سمعت من بعض أعرابكم نحوا من هذا : قدم علينا غسان بن عبد الله بن خيبرى فى عنفوان خلافة هشام ، فرأى آل خالد القسرى فقال : إني أرى النعمة قد لصقت بهؤلاء القوم حتى كأنها من ثيابهم قلت : فان صاحب هذا الكلام ابن عم صاحب هذا الحديث فيما أرى ، أما ترى كلامه ابن عم كلامه ؟ ^(١) والواقع أنه لا يقدر على توفير هذا الشرط فى نفسه ثم الرجوع بها إلى ثالث الشروط إلا من كان قوى السلطان على نفسه مرنا ، يستطيع التفريق بين عقله وقلبه ، والتردد بين إنصاف الحق وجمال الذوق .

(٣) الذاتية أو الفردية - Individuality . وهى الشرط الأخير أو العودة إلى النفس والخروج من دنيا الأدباء إلى دنيا الناقد نفسه بعد هذه النقلة أو الرحلة السالفة ولسنا ندعى تقسيم النفس شطرين أو الخلاص المطلق من عقليها الظاهر والباطن ، وإنما نريد بالذاتية أن يضيف الناقد إلى مشاركته العاطفية مقياسه الدقيق الخاص به الذى لا يصرفه عن سلامة الحكم والإنصاف فى التقدير ، وهذا المقياس الخاص مزيج من الذوق السليم والمعرفة الشاملة ، أو هو هذه المواهب النفسية التى تتلقى آثار الأدب بمجتمعة فتذوقها وتحكم عليها . وفائدة الذاتية أن تهب لآراء الناقد قوة العقيدة . وثقة اليقين ، والابتكار أو الجدة والطرافة لأن النقد ثمرة شيئين : دراسة موضوعية للأدب بمشاركة منشئه ، وتقديره شخصى يصور من الناقد عقله ، وشعوره ، وذوقه ، فإذا به أدب جديد كالأدب المنقود أو أكثر منه تعقيدا ، وهو كما مر يعرض الطبيعة والأدب والناقد ، وهو يجمع بين الموضوعية والذاتية ، فعلى الناقد أن يعود بما عرف عن الأدب وموقف منشئه ثم يفرغ للدراسة والموازنة ، والحكم آخر الأمر . ويقول

(١) أخبار أبى تمام للصولى ، ص ٢٥٣ .

الأستاذ أحمد ضيف في هذه النقطة وسابقتها : « ومن شروط النقد الصحيح أن يبتعد الإنسان عن أهوائه وميوله عندما يقرأ كاتباً أو شاعراً يريد أن يفهمه كما هو ، ولا بد أن يتخلى أيضاً عن أذواقه الخاصة لأن الاستسلام إلى ذوق الشخص ينافي طريقة النقد الصحيح ، هذه الطريقة — طريقة تحلى القارئ عن ذوقه الخاص ، وعن المؤثرات التي تحيط به — تجعله يفهم الكاتب ويفهم الشاعر بنفس الشاعر التي قال بها شعره . ولا بد من وضع القارئ نفسه في الظروف والأحوال التي أحاطت بالكاتب وقت كتابته . هذه الطريقة هي التي تمكن القارئ أو الناقد من فهم روح الكتابة ولا بد من أن ينسى الإنسان نفسه بين صفحات الكتاب الذي يريد أن يقرأه فإذا انتهى من تحليل الكتابة وفهمها على طريقة الكاتب نفسه رجع إلى معلوماته الشخصية وإلى ذوقه الشخصي وإلى ما اكتسبه من النقد بالتجربة والدرس في الحكم على المؤلف »^(١) ، ويقول الأستاذ طه حسين^(٢) في هذا المعرض : « في الناقد الخلق بهذا الوصف مزايا الأدب الخلق بهذا الوصف وعيوبه لا يكادان يفترقان إلا في أن أحدهما — وهو الأديب — يتخذ طبائع الأشياء وحقائقها مادة لأدبه ، وموضوعاً لنتاجه ، على حين يتخذ أحدهما الآخر — وهو الناقد — صور الأشياء ونماذجها — أي الأدب نفسه — مادة للنقد وموضوعاً ، ومع ذلك فليس من الحق أن الناقد لايلم بطبائع الأشياء وحقائقها ، وربما كان الحق عكس ذلك ، فما أكثر ما يحتاج الناقد إلى أن يعالج الموضوع الذي عالجه الأديب ليبين أو ليتبين ما عسى أن يكون قد عرض للأديب من صعوبة ، وما عسى أن يكون قد سلك إلى تذليل هذه الصعوبة من طريق ، وما عسى أن يكون الأديب قد وفق إليه من إجابة أو

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ٩ — ١٠ .

(٢) الثقافة ، عدد ١ .

ما تورط فيه من إساءة . فالناقد آخر الأمر أديب بأدق معانى الكلمة ، والنقد آخر الأمر أدب بأصح معانى الكلمة أيضاً ، وربما أتيحت للناقد مزايا لا تتاح للأديب المنشئ . فالناقد مرآة صافية واضحة جليلة كأحسن ما يكون الصفاء والوضوح والجلال ، وهذه المرآة تعكس صورة الأديب نفسه كما تعكس صورة القارئ وكما تعكس صورة الناقد ، فالصفحة من النقد الخلق بهذا الاسم مجتمع من الصور لهذه النفسيات الثلاث ، نفسية المنشئ المؤثر ، ونفسية القارئ المتأثر ، ونفسية الناقد الذى يقضى بينهما بالعدل ويزن أمرهما بالقسطاس المستقيم .

الفصل الرابع

النقد الأدبي بين العلم والفن

أشرنا فيما مضى إلى هذه الخواص التي تميز العلم من الفن وتفرق بين طبيعتهما وصلتهما بالحياة فلا نعيدها هنا ^(١) وإنما عقدنا هذا الفصل لبيان ما يصل النقد الأدبي بكل منهما ، أو بعبارة أخرى : إذا كنا عرفنا النقد الأدبي بأنه بيان الصفات الأدبية التي تقيس بها النصوص والمؤلفات لنقدها بها ، فهل من الممكن أن نضع قواعد ومقاييس ثابتة محدودة نقدر بها الأدب ؟ وهل لكل عنصر من عناصر الأدب موازين أو خواص إذا توافرت له كان سامياً ؟ وأخيراً هل يمكن وجود علم النقد الأدبي ؟

اشتد الخلاف بين النقاد أنفسهم حول هذه المسألة ، فمنهم من قال : إن النقد مسألة ذاتية خالصة تعتمد على ما تبعثه النصوص في نفوس القراء من انفعالات ، وما تؤثر في أذواقهم من آثار مقبولة أو منكرة وهذه النفوس والأذواق مختلفة باختلاف الأفراد فكل يتلقى النصوص وآثارها بطبيعة ممتازة ، ويتذوقها بحس خاص ويقدرها تبعاً لذلك ، على أن هذه النصوص والأذواق تستحيل مع الأيام وسعة الثقافة ، واستحالة الحياة الاجتماعية والطبيعة ، فتصبح أحكامها معرضة للنقض والتناقض . ومعنى ذلك تعدد الأحكام بتعدد النقاد ثم تغييرها بتغير الأحوال ، وليس هذا من طبيعة العلم ذي القوانين العامة الثابتة التي لا تتأثر بالملاحظات الفردية ولا المؤثرات الزمانية والمكانية ، ولكنها تمثل الموضوعية دون الذاتية التي هي طابع الفنون . على أننا إذا عرضنا لنقد الأدب العام نفسه ذلك

(١) الفصل الخامس من الباب الأول من هذا الكتاب .

الذى يحتوى حقائق وأفكاراً مقررة فلن نسلم من تأثير أذواقنا وأمزجتنا فى الحكم عليه تبعاً لما تثير الأفكار والأساليب فى نفوسنا من آراء وعواطف . ومن العسير أن يخلص المرء من ذوقه الذى يعد عنصراً هاماً فى هذا الباب .

ويقابل ذلك أن ترك النقد خاضعاً للأذواق الفردية يعرضه للفوضى والباطل مادام كل يتبع هواه وما دمننا لا نشق بسلامة هذه الأذواق كلها حتى نطمئن إلى أحكامها . فإذا اتخذنا مثلاً أو عدة أمثلة من النصوص الممتازة لتكون نماذج يقاس بها غيرها فيما توافرها من أسباب القوة والجمال — ضيقنا ميادين الأدب وعشنا بحرية الأدباء ومواهبهم المختلفة ، ووقفنا بمقاييس النقد عند صفات جزئية ضررها أكثر من نفعها ، لذلك كان لابد من نظام نقدى ووضع حدود تحول دون الفوضى من ناحية والتضييق على الأدب والأدباء من ناحية أخرى ونعود فنقول : أيمكن وضع علم للنقد الأدبى ؟

يعترض كثير من الباحثين على محاولة إيجاد هذا العلم وأنكروه معتمدين على آراء يحسن بنا أن نعرض هنا للقول فيها ومناقشتها^(١) .

(١) أول ما اعترضوا به أن هناك فرقاً بين طبيعة العلم ومقاييسه وبين ما يشاهد فى النقد الأدبى ، فالعلم له حقائقه الحسائية ، والمنطقية ، والنحوية المقررة المحدودة فإذا وافقتها الشواهد التطبيقية كانت صواباً وإلا كانت خطأ ، وكلنا يعلم أن العدد الزوجى يقسم على اثنين وأن الجازم يحذف حرف العلة دون أن يكون لأذواقنا دخل فى هذا الحكم القائم على قوانين صارت ثابتة لا تتغير . أما النقد الأدبى فالملاحظة فيه هو تحكيم الذوق ، والذوق كما عرفت يختلف باختلاف الأفراد ، وكل ناقد له رأيه الذى يلائم ذوقه ، ويخالف رأى أخيه ، ونحن أمام هذه الآراء المتباينة لا نستطيع ترجيح أحدها على الآخر إلا تحكما

أو ميلا مع رأى يتفق معنا أو يقرب من ذلك . كما أن أحدهما لا يمكن الاطمئنان اليه ، واتخاذ قاعدة عامة ، ما دام شخصياً أو ذاتياً يمثل الفرد الواحد ولا يصور حقيقة عامة ، ومعنى ذلك كله أن النص الأدبي متى أمتعنى وسرني فقد انتهت المسألة ، ومتى راق كثيرين كان عندهم رائعا ، أما أن يكون هؤلاء على صواب أو على خطأ ، أما أن نتحكم في أذواقهم ونرميها بالسقم والفساد ، فذلك منا عدوان ، ومشاحة في الأذواق لا تليق ولا تباح ، وإن كان ذلك لا يمنع وجود حقيقة أدبية مقررة ترضى الذوق السليم حقا ولا يعينها كثرة المعارضين .

وقد أجاب علماء النقد عن هذا الاعتراض بأننا نسلم باختلاف الأذواق الفردية ، وببغاوتها رقيا وانحطاطا ، وصحة وفسادا ، تبعا لمقاييس الجمال التي يعرفها فلاسفته ويرتبون الأذواق بمقتضاها ، فما يمنع أن ننتفع بذلك في النقد الأدبي وننبين أن نصوصا خاصة تلائم الشعب الراق المذهب لصفات لفظية ومعنوية فيها ، وأن قطعاً أخرى توافق أمما مختلفة لصلات خيالية أو موضوعية بينهما ، وهذان في ذلك ذوق الأمة في كل وما يخضع له من خواصها الاجتماعية ومستواها التهذيبي ؟ ونجد مثال ذلك في الفرد نفسه فهو يقرأ اليوم قصيدة يطرب لها وتروقه فإذا به بعد مدة ما يراها تافهة أو متوسطة والقصيدة لم تتغير وإنما تغير ذوقه أو إذا شئت فقل ترقى وصار لا يشبعه إلا مثل آخر أسمى من الأول . وهنا نستطيع - بالموازنة بين الطورين وما قد ينفع في كليهما - أن ندرس الذوق ونضع له مقاييس تضبطه رقيا وانحطاطا وهذه المقاييس تصبح قوانين علمية تفيد في علم النقد الأدبي . وقد تكون هذه القوانين عامة أو لما تنضج وتستقر ، ولكن ذلك لا يقطع الأمل ويدعو إلى اليأس . ولعلنا لا نحتاج إلى تمثيل هذه المسألة باختلاف الأحكام التي صدرت على الشعراء والكتاب قديما وحديثا ،

فكتب الأدب والصحف ملأى بآراء هي في الغالب صور لأذواق النقاد أكثر مما هي أحكام سديدة على آثار الأدباء .

(٢) واعتراض ثان ربما كان أهم من سابقه إذ لا يعنى باختلاف الأذواق بين الجماهير أو متوسطى الثقافة في شعب ما ، وإنما يتجاوز ذلك إلى الممتازين من النقاد وأصحاب السكافيات الخاصة ؛ فهؤلاء تختلف أذواقهم فتختلف لذلك أحكامهم على الآثار الأدبية اختلافا واضحا . واختلاف هؤلاء الحكماء لا كفاء غريب خطير ، فهم يختلفون أولا باختلاف الشعوب ، فسكبار النقاد في كل أمة لهم أذواقهم المتأثرة بمزاج الأمة ، وثقافتها ، ومقاييسها الفنية وتقاليدها الأدبية الموروثة والمستحدثة ، وإذا كنت تجد ذلك بين الشعوب المتباعدة كالانجليز والعرب فأنك تجد مثله أو نحوه منه بين الشعوب العربية والمستعربة كالمصريين والشاميين والعراقيين على الرغم من هذا التواصل العام في الثقافة الاسلامية المشتركة من عهود قديمة إلى الآن . وهم يختلفون باختلاف العصور التي ينتقل فيها الشعب الواحد ؛ فلا شك أن كبار النقاد في مصر الآن تختلف مقاييسهم الذوقية عن زملائهم منذ جيل من الزمان أو منذ نصف جيل بسبب ما تأثرت عقولهم وعواطفهم بعوامل النشاط العلمى والفنى المعاصر . ولا شك أن نقاد القرن الثالث الهجرى كانوا ذوى نظرات وملاحظات نقدية تختلف نقاد القرن الأول ونقاد العصر الحديث لأن الذوق كما علمنا يستحيل مع الأيام . وهم يختلفون أيضا في الشعب الواحد في الزمان الواحد ، فكم اختلف نقاد القرن الأول حول جرير والفرزدق والأخطل ، وكم اشد الجدل حول بشار ومسلم بن الوليد وأبى نواس في عصرهم ، والعمد قريب بهذه الموازنة بين حافظ وشوقى وبين الأحياء من الكتاب والشعراء المؤلفين ، كل ناقد له رأيه لأن له ذوقه وشخصيته الأدبية ، وغير ذلك اختلاف هؤلاء النقاد في أصول الأدب التمثيل من حيث تأليفه

وعناصره ، ولنذكر مثالا لذلك هذه الوحدات الثلاث ، وحدة الزمان ، والمكان والموضوع ، فأكثر النقاد لا يرتاحون إلا بتوافرها جميعاً ، وإن أذواقهم لتتأذى إذا نقصت منها واحدة فشغلت الرواية أكثر من يوم أو مكان أو حادثة وحدة ، في حين أن غيرهم يرى عكس ذلك ويرتاحون إلى تحلله من الأولين وإن لم يهمل الثالثة . ثم جمع الانفعالات المتناقضة وخلط النكت الفكاهية بأحزان المآسى التمثيلية كالضحك من هلاك كليوباترا (Cleopatra) بسم الأفعى ، أو من مصرع ماكبث (Macbeth) جزاء غدره ، أو من حزن أوفيليا (Ophelia) في روايات شكسبير ، فمن النقاد من رأى في ذلك جرحاً للفن المذهب الراقى وخروجاً على أصوله الملائمة . ومنهم من يرى ذلك أشد تأثيراً في النفوس وأقرب إلى قوانين الطبيعة البشرية ، هذه القوانين التي تعتبر الأسس الصحيحة للفن .

فأمام هذا الاختلاف في الذوق بين الأكفاء من النقاد ، يبدو أنه من المستحيل وضع قواعد علمية للنقد الأدبي بحيث تضبط هذه الأذواق وتظفر بالموافقة التامة .

ورداً على هذا الاعتراض الثاني يسلم علماء النقد بوجود هذا الاختلاف أيضاً بين النقاد الممتازين ، واسكنهم يقولون إن الاختلاف ليس عظيماً كما يتوهم المعترضون ، والحق أن وجوه الخلاف الذوقي بين الشعوب المختلفة ، والعصور المتعاقبة والنقاد النابهين أقل كثيراً عن وجوه الاتفاق . على أن هذه إذا لم تكن أكثر عدداً فهي أعظم أهمية . فإذا لم نسلم بذلك نفينا وجود الأدب الخالد — ولا شيء في الدنيا يخلد خلود الأدب والفن بوجه عام — ويمكنك أن تلاحظ ذلك في إجماع الشعوب على عظمة هوميرو وشكسبير ، وعلى إقرار الناس بعظمة المتنبي ، وجمال البحترى ، وبراعة الحافظ فهما يختلف بهم العصور والبيئات .

وتستطيع أن تزيد على هذا فتلاحظ أن أسباب جمال الأدب وقوته عند المتقدمين هي بعينها أسباب الجمال والقوة عندنا نحن ، وإن كان من المحتمل وجود تفاوت في درجة التذوق الأدب ، وفي قيمة كل صفة من صفاته الرائعة ؛ فهناك ، إذا ، طابع إنساني عام تخضع له جميع الأذواق . يصح أن يكون هذا الطابع الأساسي مقياساً وقانوناً من قوانين النقد الأدبي . فهذا وجه يتصل معظمه باختلاف الأذواق تبعاً للاختلاف الشعوب .

وهناك وجه آخر يتصل باختلافها في الأمة الواحدة . وهي اختلافات قليلة في العادة ، فالنقاد عندنا كلهم أو أكثرتهم على تقديم امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى على الجاهليين ، وهم يعدون جريراً والفرزدق والأخطل فحول القرن الأول ، ويعرفون قيمة أصحاب المقامات والرسائل ويسلمون بمكانة أبي تمام والبحتري والشريف والمتنبي والمعري ، كما يعرفون المعاصرين من الأدباء ميزاتهم البيانية وهذا الاتفاق إن دل على الشيء فهو أن في نفوس هؤلاء النقاد مقاييس متحدة وأذواق متشابهة أدت إلى هذا الاتفاق في الحكم والتقدير . ويمكن ، إذا ، ضبط هذه المقاييس ودرسها واتخذها أساساً لوضع أصول النقد الأدبي ومسائله العلمية مهما يكن في هذا من المشقة وما يستدعيه من المرونة والبراعة . وذلك لأن علم النقد هذا مضطرب أن يحتاط لهذه القلة التي تخالف الكثرة ، فلا يجعل قوانينه جزئية دقيقة كقواعد النحو والبلاغة والعروض بل تكون طبعية عامة تسمح لكل ذي ذوق مصفى أن يشترك في الانتفاع فيها حتى ولو كانت ميوله شخصية تماماً ؛ كالمتشائم الذي يميل مع المعري واللاهى الذي يؤثر أبا نواس ، والحكيم الذي يفضل المتنبي وهؤلاء يعدون جميعاً عظماء في رأى المنصفين وإن تجاذبتهم الأمزجة والميول .

على أن هذا الاختلاف الكثير بين الأذواق يدل في حقيقته وأعماقه على

اتفاق شامل وهذا يظهر في قوانين الرواية التمثيلية التي تسربت إلينا خلال العصور كما هي على الرغم من تبدل الأحوال التي استدعتها عند اليونان الأقدمين . فالوحدات التي أشرنا إليها كانت ملائمة للقصة اليونانية التي كانت تمثل لتؤدي إلى غاية معينة خاصة ، فكان توافر هذه الوحدات مساعداً على ذلك ، ولكن ليس معنى هذا أن تنقيد بها دائماً مع أن أغراضنا التمثيلية قد تجددت ، ولا أن التمثيل اليوناني القديم يبقى كما هو مثالا للفن المسرحي ، إذ لا يقول أحد بخلود القوانين الفنية وسيطرتها العامة ما لم يثبت أن الأحوال التي أثمرتها ورقتها خالدة حتماً وحق مشترك بين جميع العصور والبيئات . ومثال ذلك وحدة الموضوع في القصة الواحدة فهذه موضع اتفاق عام لذلك صارت حقيقة عامة خالدة ، ومعنى هذا أن التحوير في مقاييس النقد طوعاً لنغير الأحوال يدل على اتحاد في الذوق العام واتفاق بين أصحابه يساعد على إخضاع أذواقهم لقواعد علمية عامة هي قواعد النقد الأدبي .

وهناك اعتراض آخران على محاولة وضع علم للنقد الأدبي ، وهما لا يقومان على اختلاف الأذواق بين النقاد ، وإنما على طبيعة الأدب نفسه .

(١) أولهما أن ميدان الأدب عريض ، وفنونه كثيرة ، وخواصه البيانية والأسلوبية تكاد تكون بعدد الرؤوس والأفلام ، فكيف يستطيع باحث إحصاء ذلك وتقسيمه وإخضاعه لقواعد محدودة ثابتة ؟ نحن الآن بصدد اختلاف الفنون الأدبية وخواصها البيانية بحسب طبيعتها وتأثرها بالبيئة التي أثمرتها لا بصدد الأذواق الأدبية وتباينها ، فهناك الشعر ، والكتابة ، والخطابة ، والرسالة ، والمقامة ، والقصة . وهناك أنواع الشعر والخطابة والرسالة . هناك تشاؤم أبي العلاء وثورة المتنبي وأطماعه ، وصدق جميل ، وعبث أبي نواس . وكل أولئك صفات أدبية مقررة تروق القراء ، فإذا نظرت من ناحية أخرى رأيت

أدباً عاطفياً يقوم في الأكثر على ثورة العاطفة وبغتها ، وأدباً عقلياً يعنى بالفكر وإمداده بالحقائق والآراء ، وأدباً أسلوبياً هم أصحابه جمال التصوير ورقة التعبير ، وأدباً قوياً جميلاً لأسباب قد نعجز عن توضيحها ، فكيف نجتمع هذه الخواص في قوانين ، وكيف نحصر جميع المواهب العقلية ، والمشاعر الوجدانية التي يعتمد عليها الأدب ثم ندونها فصولاً وقواعد ؟ إنا إذا تقبّعناها جميعاً كنا أمام مقاييس لا تحصى ولا تنفع لتغيرها حسب الفنون والأساليب ، وإذا اخترلناها كانت قليلة نافية لاتشمل آثار الأدباء جميعهم ولا أكثرتهم والأدب صور الحياة الإنسانية التي لا تحد ولا تحصى مظاهرها .

ويجاب عن هذا الاعتراض بأن هذه الأنواع الأدبية الكثيرة والخواص التي لا تنتهى ، لها أصول عامة ثابتة يمكن حصرها وتنسيقها وإدخالها تحت مقاييس عامة أيضاً ، فالمواظف تخضع لقوانين الصدق والقوة والسمو مهما تختلف والأخيلة التي لا حصر لها توصف بالجمال ، وحسن التأليف ، والاتصال بالحس وعدم الإحالة ، والقدرة على تصوير الشعور . والأساليب واضحة قوية جميلة ، وهكذا يكون الشعر مؤثراً والكتابة مقنعة والخطابة مقنعة مؤثرة كما هو مقرر في النقد الأدبي . ومعنى ذلك أن هذه الكثرة النوعية لا تجعل علم النقد مستحيلاً ، وإن كانت تشير إلى صعوبته وإلى وجوب مرونة قواعده .

(٢) والاعتراض الثانى متصل بالأدب من حيث أنه مظهر لشخصية الأديب وعبقريته ، فالأدب كما مر بك تعبير عن شخصية الأديب : ما عناصرها ؟ كيف تنشأ ؟ وكيف تمتاز وتشر ؟ لا نعرف ذلك الآن معرفة علمية واضحة وإن كنا نرى آثاره في القصائد المختلفة ، وفي دواوين الشعراء وآثار الأدباء والفنيين ، وهي آثار مختلفة الألوان والأذواق باختلاف الفنيين والأدباء ، ومن الصعب وضع قانون أو قوانين تجمع مواهب غامضة من ناحية ، وكثيرة لاتكاد تحصى من

ناحية ثانية ، فهمة النقد شاقة عسيرة حين يحاول إيضاح هذه العبقریات المتنوعة ، ودرس آثارها درساً مقارناً ، وبيان أسباب محاسنها ، ثم تدوين ذلك بطريقة علمية حاسمة . وهذا الاعتراض قد ألم به سينتسبرى Saintsbury فأشار إلى أن النقد الأدبي العلمي غير ممكن إلا اذا استعملنا كلمة - علمي - في غير معناها الحقيقي ، لأن الخواص الجوهرية للأدب والفن ذاتية تقوم على الفطرة والمزاج الخاص وهي بذلك تنافي طبيعة العلم ، نعم قد يمكن وضع هذه الخواص الأدبية أقساماً ونظمها في قوانين عامة قد تقل وتجزئ ولكنها تقصر دون التعميم العلمي والصياغة الدقيقة ، فليس هناك تعليل علمي يوضح هذه المسألة : لماذا لم يكن أى شخص شكسبير ، بل لماذا لم يكن كل أحد شاعراً ، والعلم لا يزال عاجزاً عن تفسير ما نراه من هذه الفروق في التعبير بين الأدباء حين يصوغ أحدهم من الكلمات أسلوباً رائعاً خالداً ، ويعجز الآخر أن يتخذ بصياغته ما يوازي الأول في الروعة والجلال^(١) .

على أن النقد العلمي يقصر دون تحقيق الغرض الذي تسعى إليه ؛ فقد يستطيع بالدرس والموزنة بيان ما يتشابه فيه الكتاب والشعراء وما يختلفان ، وإخبارنا بهذه الميزات التي أثمرتها عبقرية المتنبي أو البحتري فكان ذلك عظيمًا خالداً ، ولكن ليس هذا ما نبتغيه من النقد الأدبي ، انما نبغى ذوق المتنبي أو البحتري وأشعار أنفسنا بما للأديب من نكهة خاصة وطعم ممتاز . أفستطيع أى ناقد حصيف أن يشرب نفوسنا ذلك ؟ لا ، إن النقد قد ييسر ذلك أو يعمله ولكنه يعجز دون إضفائه علينا ؟ فإذا أردنا تذوق الجاحظ أو المعري أو أبي نواس أو شوقي والإمام التام بشخصية أحدهم وجب أن نقرأ آثاره بأنفسنا قراءة صحيحة عميقة وألا ننتظر أحداً يقدمه لنا . وهنا نصل الى مسألة أخرى هي مسألة

(١) نفس المرجع (Winchester) ، ص ٢٧ .

التأثر والانفعال الشخصي بالأدب وقدره تبعاً لذلك ، فإذا قرأنا الجاحظ بعث في نفوسنا إعجاباً بثقافته الواسعة ، وسخريته اللاذعة ، وبراعته النادرة ، وأسلوبه الطيِّع المواتي ، أيسكني أن أثق بحكمي الخاص أو أقف عند سر هذه الصفات دون تعليل ولا تفسير ؟ أما الاعتماد على الحكم الخاص فعنائه أن النقد الأدبي أحكام فردية خاصة وقد قلنا إنها فوضى وخطر على الأدب والنقد جميعاً ، وأما الوقوف عند قولهم أنا أحب هذا الأديب دون ذاك أو هذه القصيدة دون تلك فحسب ، فهو عمل سلبي ليس من النقد في شيء ولا يد من محاولة توضيح هذا الانفعال الحب أو المبغض ؟ لم كان وما أسبابه ، أهى عقلية أم عاطفية ؛ أسلوبية أم خيالية ؛ موضوعية أم شكلية إلى نحو ذلك .

وقد قيل في مناقشة هذا الاعتراض : إنه إذا كان التأثر الشخصي لا يصلح أساساً للنقد ؛ وقد صار من اللازم إصدار أحكام نقدية على الأدب ، فما العمل ؟ ألا يستلزم هذا وجود مقاييس لتنظيم هذه الأحكام ؟ وعلى أي أساس تقوم هذه المقاييس إذا لم يسبقها أو يصاحبها بيان أنواع الأدب وقواعد تقديره وتقديره فنياً صحيحاً ؟ الواقع أننا لا نستطيع بيان الميزات القويمة للنص الأدبي دون الاستعانة بأصول نقدية مقررة على الرغم من وجود نصوص أدبية قد تسمو على التعليل والتحليل وتعجزنا عن اكتناه أسرارها الفنية وخواصها الأدبية .

* * *

هذه الاعتراضات وما لا يسها من مناقشة تدل على أن النقد الأدبي يقف موقفاً وسطاً بين العلم والفن بعناهما الدقيق أو هو فن منظم ، لأن طبيعة العلم التي تسيطر على الجزئيات مستقصية ثم تستنبط من ذلك قوانين عامة حاسمة لاسطغان للذوق الشخصي عليها — هذه الطبيعة تخالف الواقع في النقد الأدبي الذي يصطدم دائماً بهذه الأذواق المتباينة والعقريات الكثيرة والفنون الأدبية المختلفة التي

لا يشملها قانون عام ، لذلك كان الواجب الأول على من يريد إخضاع النقد للمناهج العلمية أن يحتاط لهذه الأمور فيجعل قواعده بسيطة قليلة ، وليحذر محاولة التقنين التفصيلي الدقيق وإلا وجد نفسه أمام الأذواق الخاصة للنقاد يضع لكل مقياسه المقصور عليه ، والنقد لا يعرف ناقداً يعينه صغيراً كان أو عظيماً ، بل يعرف الأصول المقررة على قلتها وبساطتها ؛ كما أنه يتجه إلى الأدب دون الأدباء .

على أن هذه القواعد النقدية التي يسترشد بها النقاد حين ينهضون بوظيفتهم لا يمكن مطلقاً أن تخلق الأديب المنشئ . ولا الناقد البارع ما لم يكن لهما من طبعهما أساس خلقي وعبرية موهوبة ، فالأديب حين يبدع ما يقول لا يضع نصب عينيه قوانين يستشيرها بل يستوحى طبعه ويستلهم عبقريته الخاصة وليس من طبيعة الأشياء أن تقول للشاعر أو الكاتب هاك أصولاً تقيد بها وحدها حين تقول ، إذ كان الحق أن هذه القواعد مستنبطة من الأدب لأن الأدب وليد هذه القوانين .

وزيادة على ذلك فليس في مكنة قانون نقدي أن يرسم لنا طريقة قصيرة سهلة لتقدير الأثر الفني لأن الآثار الأدبية ، وبخاصة إذا كانت عظيمة ، شديدة التعقيد لاحتوائها صفات مختلفة ، يندر أو يستحيل أن تتألف في اثنين بشكل واحد ؟ لهذا لا نأمل — في تقدير هذه الصفات تقديرًا تاماً — أن نفع بتطبيقها على هذه القواعد البسيطة ليس غير ، ولا سيما أن أصول النقد مهما تكن سديدة ، ليست هي الركن الأساسي في باب النقد ، فهناك ذوق الناقد ومشاعره التي تهيم للحكم وتصقله ، وعليه أن يدرس ويفهم ، ويحصل قبل إبداء رأيه . وإذا فما فائدة هذه القوانين النقدية ما دامت لا تستطيع أن تبعث فينا شعوراً بجمال الأدب ، وانفعالا نتكئ عليه في سبيل التقدير والانتقاد ؟ إنها

تساعد في صقل مشاعرنا ، وهداية أذواقنا حين يعترينا خمود أو ضلال ،
وتجعل أحكامنا النقدية أقرب إلى الصواب وأدعى إلى الاحترام والسكال .
وإذا كان النقد الأدبي كما مر شيئاً بين العلم والفن ، فيه من كل حظ ،
كان من الطبيعي أن تكون دراسته كذلك وسطاً بين جمال الفن ودقة العلم ،
وليس من المنتظر أن نضمن لها اللذة دائماً لأن طبيعة النقد ليس فيها روعة الخيال
وهزة العاطفة التي نظفر بها عند قراءة الأدب ذاته ، أما تحليله وتعليقه فقد يصرفنا
عن الاستمتاع بما فيه من سحر وجلال . نعم إن بعض النقاد يحاولون أن يكتب
بأسلوب رائع جذاب يخفف من هذه القسوة العلمية التي يقتضيها النقد وتستدعيها
الأمانة في العرض والتفسير ، ولكن ذلك قد يبعد به عن مهمته قليلاً ، فليحذر
الناقد القصور الناشئ عن جفوة العلم وقسوة المنطق بقدر ما يحذر التقصير رغبة
في روعة الأسلوب وجمال التخيل .

الفصل الخامس

في وظيفة النقد الأدبي

يحمل الشاعر الإنجليزي الكبير وليام وردزورت William Wordsworth (١٧٧٠ - ١٨٥٠ م) على النقد الأدبي ويعده عبثاً باطلاً لا غناء فيه ، ويرى أن المقدرة على النقد أخط من القدرة على الإنشاء ، ولو أن النقاد أنفقوا أوقاتهم في كتابة أى شيء آخر في باب ما بدل إضاعته في هذا الباب لكان ذلك أجدى عليهم ، وأعود على نفوسهم بالتهذيب دون أن يقلقوا غيرهم من الكتاب والشعراء على أن النقد محتوم الضرر إذا تناوله غير الأكفاء ، فعلى الناقد أن يرجع إلى ضميره ، ويسأل نفسه : ما الفائدة المنتظرة من نقده آثار الأدباء^(١) .

وكأنى بهذا الشاعر الكبير قد ضاق ذرعاً بجماعة النقاد وعدّ عملهم فضولاً وتطفلاً على هؤلاء الأدباء الذين ينشئون الأدب ويتكبرون في ضروبه المختلفة حتى إذا فرغوا من ذلك تعقبهم هؤلاء ، صاخبين يحبون على آثارهم حقاً أو باطلاً ، فليمت النقد الأدبي ، ولينصرف النقاد إلى غير هذه الحرفة اعلمهم ينجون من سخط شاعر المجلّات العظيم .

والكن إذا نحن سلمنا معه برفض النقد الخاطئ ، وقلنا إن قوة ابتكار الأدب وإنشائه أسمى ، في كثير من الأحيان ، من قوة النقد ، فهل معنى ذلك أن ينصرف الكتاب عن النقد الأدبي وأن يؤمنوا بأن هذه الساعات التي يصرفونها في نقد

الآثار الأدبية عمر ضائع وحياة لاخير فيها ، ولقد تكون مباركة ميمونة الطالع لو صرفت في إنشاء الأدب مهما تكن درجته ؟ ماذا يحدث لو ذهب النقد الأدبي أو النقد مطلقاً ؟ لاشك أن الحياة تنطوى إذذاك على خطأ كثير وضلال مبين ، وتخضع في سيرها لآراء أو نظريات طائفة خاصة غير معصومة ولا متناسقة الجهود ، وتمر فائرة وقد تموت فيها المواهب ويتأذى بذلك الأدباء والفننيون أكثر من كل أحد . وإلا فمن يرشدهم إلى الحق ، ويعينهم على السكال ، ويصرفهم عن الضلال ويصل بينهم وبين الناس لعل الناس ينتفعون بالفنون والآداب نفعاً سليماً عميقاً ، ولو ذهب النقد العلمى تعرضت الحياة لمأس مهلكة ، ونتائج زور ، وعاش الناس في ضلال وأوهام .

وربما كان النقد الأدبي أحق من سواء بالعناية لأن الأدب نفسه أكثر شيوعاً ، وأمس بالحياة الاجتماعية ، وأجمع لخلاصات الجهود الإنسانية من سائر الفنون وهو بعد ذلك صريح واضح ، درجة الإيجاز والرمز فيه أقل منها في الرسم والموسيقا والتصوير ، لذلك كان أبعد أثراً في حياة الناس . وكان أحق بالنقد والتعقيب ، ومن بين الأدب ونقده تنجلي الحقائق وترسم المثل العليا ، وتتقدم الحياة وتصل المواهب الإنسانية حتى قال بعض النقاد : إن الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم تعرف من آراء النقاد أكثر مما تعرف من الأدب نفسه ، أى أنه يمكن أن يعرف الانسان من ملاحظات النقاد على الكتاب والشعراء صحة مطابقتها للأخلاق والعادات من عدمها لأن النقاد يرون ما لا يراه الكاتب نفسه فتكون آراؤهم أقرب إلى الصواب من آراء الكاتب . وهذه الآراء تبين أفكار الكاتب وحكمه على المجتمع الذى يعيش فيه . لهذا قيل : إن الحكم على الأدب نفسه هو صورة الاجتماع ، أى أن المؤرخ الذى يريد أن يأخذ شيئاً من كتابة الأمم للحكم على مدنياتها ، عليه أن يجمع آراء النقاد المختلفة ويوازن بينها ليستخلص منها صورة

صحيحة من الحالة الاجتماعية ، فقد يجد أفكاراً متناقضة مختلفة في عصر واحد لأن كل انسان له رأى فان لم يكن هناك تمييز بين هذه الأفكار فبأيها يحكم القارىء؟ وعلى أى اجتماع يكون حكمه صحيحاً ؟ وماذا تكون الحال إذا حكمنا على زمن الرشيد بشعر أبى نواس ، وأمثاله ، وحكمنا على الشعراء بمثل هذه الاخلاق وأبو نواس يكاد يكون وحيداً في بابيه مع أصعابه كما قال حمزة بن حسن الاصبهاني جامع ديوان أبى نواس : « وقد خص شعر أبى نواس ممن لهج باضافة المنحول اليه بما ليس في غيره من الأشعار ، وذلك أن تعاطيه لقول الشعر كان على غير طريقهم لأن جل أشعاره في اللهو والغزل والمجون والعبث كأشعاره في وصف الخمر والغزل بالنساء والغلمان ، وأقل أشعاره مدائح ، وليس هذا طريق الشعراء الذين كانوا في زمانه وكانوا من بعده ، فأبو نواس في توفره على الهزل بازاء عمران بن حطان وصالح بن عبد القدوس في توفرها على الجد الصرف : » ^(١)

والحق أن النقد الأدبي ظاهرة اجتماعية لاغنى عنها مطلقاً ما دام الانسان مدنياً بالطبع ينشئ ما ينشئ ويقصد بهذا الانشاء إما تعبيراً عن نفسه وإما تهذيب غيره بالافادة أو التأثير ، ثم يعرض آثاره على الناس ليقروا في زمنه أو بعد زمنه . فاذا قرأها الناس أثارت في نفوسهم أفكاراً وملاحظات هي مع الأديب أو عليه أو استدعت آراء أخرى متصلة بالأدب عن قوب أو بعد . ومن حق هؤلاء القراء أن يعبروا هم أيضاً عن مشاعرهم وآرائهم فيما قرأوا أو سمعوا ، ومن حقهم أن يسايروا الأديب المنسى موافقين راضين أو يعارضوه مخالفين كارهين ، فاذا فعلوا كانوا هم النقاد وكان كلامهم نقداً ، وإلا فما فائدة القراءة ؟ ولم وجد القراء أو الناس ؟ وأخير ما فائدة الأدب والأدباء وإن من يتأمل قليلاً فيما يكتب وينشر يجد أكثره نقداً ، ويجده لازماً لإصلاح الادب وسواه ، ثم

(١) أحمد ضيف : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ٧٤ .

أليس الأدب نفسه نقد الحياة تفسيراً وإيضاحاً وكشفاً عما في طبيعتها من حق وباطل ، ونافع وضار ، وقبح وجمال ؟ فإذا كان الشعراء والكتاب يسمعون لأنفسهم بتعقب الحياة أملاً يسمعون للقراء أن يتعقبوهم لعل في ذلك خيراً لهم وللحياة ؟ !

النقد الأدبي يفيد الأدباء المذنبين ، ويفيد القراء المفيدين ، ويفيد الأدب نفسه فلننظر في بيان ذلك .

أما أنه يفيد الأدباء فمن الوجوه الآتية :

أولها : أنه يفسر آثارهم ويبين الأصول اللازمة لفهمها ، والوجوه التي تفهم عليها وهو بذلك ييسر قراءتها على الناس ويصل بينهم وبين الشعراء والكتاب الذين قد لا يعرفون لولا النقد ، ولهذا تتمكن منزلتهم في النفوس ويشترون في بناء الحياة الاجتماعية مؤثرين ومتأثرين ، وكثيراً ما يكتب لهم بذلك الخلود ، وكثيراً ما ترى في العصور الأدبية كتاباً وشعراء بقوا مغمورين أحياء وأمواتا حتى أتبع لهم النقد فطفوا على لجج الحياة ونشرت آثارهم واستأنفوا عمراً جديداً خصباً خالياً من الآفات ، ولا تزال متاحف المكتب مלאى بكل نافع ينتظر المنصفين من النقد ليدلوا عليه أو يعنوا بنشره فينشر معه صاحبه .

ثانيها : أن النقد يقوم الأدباء ، فهو الذي ينظر في مقدار ما وفقوا في الوصف أو القصص أو المقال أو الخطابة سواء أ كان ذلك من حيث التعبير الصادق لذاته أم من حيث تأثيره في الحياة والأحياء ، فإن كانوا مخطئين نبه إلى الخطأ وشرع الصواب ، وإن كانوا مصيبين روج لهم ، ووطد طريقهم ، ورسم لهم مثلاً كاملة وأخذ بأيديهم ، لهذا كان النقد المنصف هدى ورشاداً ، وكان خاضعاً لأصول مقررّة ترضى الناقد والكتاب في أغلب الأحيان .

ثالثها : أنه يدل الأدباء على رأى الناس فيهم ويلفتهم إلى تقدير هؤلاء الناقد

ومراعاتهم حين الإنشاء الأدبي ، وإلى التخفيف من غلوئهم ليكونوا مع الناس في إلف أو نحوه فيتحقق بذلك التعاون الثقافي والتهذيبى ، ويدخل الأدب إلى الحياة ينير سبلها ، ويخفف من شقائها ، وينشر على الناس جمالها .

والنقد الأدبي يفيد القراء من عدة نواح :

الأولى أنه يقرب إليهم الآثار الأدبية كما مر ، ويساعدهم على فهمها وقدرها ، ولا سيما أن القراء طبقات متفاوتة الكفايات ، متنوعة الأمزجة ، ومنهم من يكون حديث العهد بالأدب أو بعيدا عن مشرب الأديب ، فهو فى حاجة إلى هذا الوسيط الذى يصل بين هذه النفوس ويسدل عليها وحدة ثقافية مناسبة .

الثانية : أن النقد يرسم للقراء طرق القراءة النافعة لأن الناقد يكون أكثر مرانة ، وأعمق فهما ، وأقدر على التفرقة بين أنواع الأدب وعلى تحليل نصوصه فهو بذلك يهديهم إلى نواحي الجمال والقوة فيه أو عكس ذلك فيصقل مواهبهم ويجنبهم القراءة ويبين لهم والمآذباء أمثل الأساليب وأسمى الغايات .

الثالثة : أن النقد يساعد القراء على انتقاء الكتب التى تتصل بدراساتهم أو تكون ألد لهم وأنفع ، فيعرض عليهم خلاصات لها كافية ، ويبين لهم نهجها ، ونواحي الكمال أو القصور فيها ويوفر عليهم كثيراً من الوقت . لذلك تجد الصحف والمجلات الهامة تعد أبواباً خاصة للكتب الجديدة يتناول الكتابة فيها كُتّاب مختصون يعرضون على القراء صورة دقيقة لهذه الكتب ، وكل يقتنى ما يراه ألزم له . نعم إن القراءة الخاصة أنفع ، ولكن من الناس يجد الوقت أو الجهد أو المال لاقتناء كل شئ وقراءته ثم الحكم عليه واختياره .

والأدب نفسه يفيد من النقد أموراً هامة :

(١) منها أنه يقوى ويتقدم ما دام النقاد يتعمقون الأدباء ، فيشتد التنافس

بين هؤلاء ، ويحسبون حساب النقد وأحكامه ، ويبالغون في إجادة التفكير وحسن التصوير وبلاغة التعبير والملاءمة بين نفوسهم وبين القراء فإذا بالأدب واضح جميل ، وإذا به يجمع بين المثل العليا والأخذ بيد الناس إليها فيكون فناً جميلاً ونافعاً معاً . تجد مثال ذلك في تاريخ النقد الأدبي فسكم كان له تأثير في شعر البحترى وأبى تمام والمتنبي ، وتجد في عصرنا الحديث إذ جعل الشعراء يتأنون ويجودون ويتنافسون وكذلك الكتاب والمؤلفون .

(٢) والنقد الخلاق لا يقف عند بيان المحاسن والمساوي وإنما يتعدى ذلك إلى اقتراح ما ينهض بالأدب ويوسع في آفاقه من فنون جديدة أو أساليب ممتعة ، أو أفكار تخصب الأدب وتزيد ثروته ، ولقد كانت التيارات النقدية سبباً في تأليف الكتب والفصل في الخصومات ، ووضع حد للفوضى في الإنشاء . فكتب الموازنة والوساطة وأدب الكاتب ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة كانت ثمرات طيبة لثورات نقدية في القرون الأولى ، ولا تزال نرى آثار النقد كثيرة ، تعد هي أدباً قوياً أيضاً .

(٣) والنقد يكثر أنصار الأدب ، ويبسط سلطانه على النفوس ، ويبين صلاته المتعددة بالزمان والمكان والأفراد ، ويبين قيمته الفنية ويفسح له بين الفنون والعلوم وبخاصة في هذا العصر الذي انصرف الناس فيه إلى المتاع المادي أو الأدب الرخيص .

وقبل أن نختتم هذا الفصل نقبس الكلمة الآتية التي تختصر فائدة النقد الأدبي ، كتبها الأستاذ طه حسين « والمهم أن الأديب مهما يكن أمره كائن اجتماعي لا يستطيع أن ينفرد ولا أن يستقل بحياته الأدبية ولا يستقيم له أمر إلا إذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس فكان صدى لحياتهم وكانوا صدى لنتاجه ، وكان مرآة لما يجدون من لذة وألم ومن نعيم وبؤس ، وكانوا مرآة لما يذيع فيهم من رأى

وخاطر ، وما يغذوهم به من هذه الآثار الأدبية على اختلاف ألوانها ، وهو في حاجة إلى أن يشعر بهذه الصلة وإلى أن يراها قوية متينة مترددة بينه وبينهم كما يتردد الرسول بين المحبين . وذلك يدفعه إلى العمل وينشطه للانتاج ، وبغذو نفسه بالمعاني ويشير فيها الخواطر والآراء ويشيع في النقد القوة والجدة والنشاط ، ويلازم بين هذه الماغمة وبين قلوب الذين يقرأونه ويسمعونه على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في جمهور الناس ومن هنا ينشأ لون من الأدب هو الذي يحقق الصلة بين المنتج والمستهلك ويحفظها على أتم وجه وأقواه وأنفعه لأنه يقوم مقام الرسول بين هذين العاشقين اللذين يختصمان حيناً ويأتلفان حيناً آخر ، وهما الأديب والجمهور ، وهذا اللون الجديد من الأدب هو النقد الذي يبلغ إلى الناس رسالة الأديب فيدعوهم إليها ويرغبهم فيها أو يصرفهم عنها ويهديهم فيها ، والذي يبلغ الأديب صدى رسالته في نفوس الناس وحسن استعدادهم لها أو شدة ازورارهم عنها أو فتورهم بالقياس إليها ، ولعله أن يبين للأديب أسباب إقبال الناس عليه وإعراضهم عنه ، ولعله أن ينصح للأديب بما يزيد إقبال الناس عليه إن كانوا مقبلين ، ويخفف إعراضهم عنه إن كانوا معرضين ، فهو الرسول الحكيم الذي نصح القدماء باتخاذهم لذوى الحاجات ، هو حكيم بالقياس إلى الجمهور لأنه يدل الناس على ما يحسن أن يقرأوا وعلى ما يحسن أن يفهموا مما يقرأون ، وهو رسول حكيم بالقياس إلى الأديب لأنه يبين مواقع فنه من الناس ، وقد يدلّه على الخطأ إن وقع فيه ليتجنبه ، وعلى الصواب إن وفق إليه ليزيد منه ، وقد يدلّه على التقصير الفني ليتقيه وعلى الاجادة الفنية ليتغنيا فيما يستأنف من الآثار ،^(١)

هذه وظيفة النقد الأدبي من حيث أنه فن يظهر مقالات أو رسائل أو كتباً يقرأها الناس فإذا هي فصول أدبية أيضاً لا تقل أحياناً عن الأدب الخالص وربما

امتازت منه بأنها مزيج من عدة أشياء لا تتكامل في الأدب نفسه أو الأدب المباشر ، فيها الطبيعة التي يعنى بها الأديب المنشئ ، وفيها نفس الشاعر أو الكاتب الذي صور هذه الطبيعة ، وفيها الناقد الذي تعقب الأديب يزن آثاره ويقيسها بالنسبة إلى الحقائق الأدبية والأصول الفنية وبالنسبة إلى ذوقه كذلك وفيها هؤلاء القراء الآخرون والجمهور المتفتح ما دام النقد رسولا بينه وبين الأديب يبلغه آراء القارئين .

والنقد إذا كان علما : أصولا وقوانين ، أعان الناس على قدر الأدب وصحة الحكم عليه ، ورسم للنقاد الكتابيين بعض الخطط التي تهديهم فيما يعالجون ، وحاول أن يرد عملهم إلى أصول عامة نفسية وفنية وفلسفية وأن يشرح طبيعة الأدب من وقت لآخر ، وأن يعاود قوانينه بالايضاح أو حتى بالتعديل ، ليبقى حيا ينفع الأدب والأدباء والنقاد .
